صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

من طه حسين إلى الطيب صالح

د. كمال عبد الملك
منى الكحلة





صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

من طه حسين إلى الطيب صالح

الكتاب:
صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث
من طه حسين إلى الطيب صالح

إعداد وتقديم:
د. كمال عبد الملك ومنى الكحلة

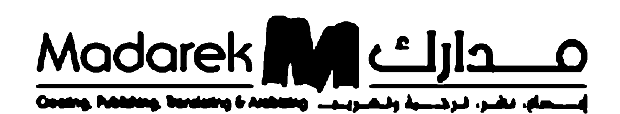
التصنيف:
أدب   شرق وغرب

الناشر: مدارك إبداع، نشر، ترجمة وتعريب

الطبعة الأولى: فبراير (شباط) 2011

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9953-566-36-8

الكتاب متوفر على الإنترنت:
مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com



Tel. 00961 1 282075   Fax: 00961 1 282074
Gharios Center. Forn Elchebbak. Beirut - Lebanon
www.mdrek.com   read@mdrek.com

صورة أوروبا في الأدب العربي

من طه حسين إلى الطيب صالح

إعداد وتقديم

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

تمهيد

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث
من طه حسين إلى الطيب الصالح

في نيسان/أبريل 1930، وفي الجامعة المصرية المبنية حديثاً، التقى عباس محمود العقاد (1889 ـ 1964) بسلامة موسى (1889 ـ 1964)، وهما اثنان من الكتاب الأكثر نفوذاً في مصر، لمناقشة مقولة الشاعر الإنجليزي كيبلينج الشهيرة حول الشرق والغرب وكيف أنهما ضدان لا يجتمعان. أكد العقاد أنه يتفق مع رأي كيبلينج، فردّ عليه سلامة موسى: «لا، يمكن إيجاد أرضية مشتركة للتفاهم بين الشرق والغرب لأن كليهما ينتمي إلى أسرة بشرية واحدة ومصير بشري واحد».

وأوضح موسى أن الإمبريالية الغربية تريد من الشرق أن يبقى شرقياً، أي متخلّفاً، حتى يمكن أن تحتفظ بسيطرتها عليه، وأن المحافظين والرجعيين في الشرق يساعدون عن غير قصد الإمبرياليين بإصرارهم على إبقاء منطقة الشرق متخلّفة ومعزولة عن الحضارة الغربية. والأمل الوحيد لتخليص الشرق من الخمود

والتخلف، كما أكد سلامة موسى، يكمن في اعتماد القيَم والممارسات الغربية بالكامل. ولكن العقاد عارضه القول مؤكداً أن عدم التوافق بين الهوية الروحية للشرق والنزعة المادية للغرب يمنع أي لقاء بينهما.

هذه المناظرات والمناقشات الفكرية والتي تُظهر المواقف المتباينة من الغرب والحضارة الغربية تتجلى أيضاً في العديد من الأعمال الإبداعية العربية البارزة لهؤلاء الكتّاب الكبار:

1. طه حسين: أديب (1935).
2. توفيق الحكيم: عصفور من الشرق (1938).
3. يحيى حقي: قنديل أم هاشم (1944).
4. سهيل ادريس: الحي اللاتيني (1954).
5. الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال (1967).

وهذه الروايات يمكن أن نسمّيها «روايات المغتربين» وقد مرت بثلاث مراحل: الأولى يكون فيها بطل الرواية قد حمل كلّ عاداته المحلية معه إلى بيئته الجديدة في الغربة، أي أن انتقاله إلى أوروبا كان انتقالاً مكانياً، ويمثل هذه المرحلة خيرَ تمثيل، توفيق الحكيم. في المرحلة الثانية يكون فيها البطل قد درس في أوروبا وحصل على شهادة، وعاد إلى بلده من دون أن يتمكن من الانسجام مع بيئته الأولى. تمثّل هذه المرحلة رواية «قنديل أمّ هاشم» ليحيى حقي، و«موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح.

المرحلة الثالثة هي التي يمزّ بها الروائيون المغتربون في الوقت الحاضر. وفيها يدرس البطل الروائي في الغرب، ولكن الغرب هنا أصبح أمريكا. تمثّل هذه المرحلة روايات معاصرة مثل: «أمريكانلي» لصنع الله ابراهيم، و«شيكاغو» لعلاء الأسواني و«بروكلين هايتس» لميرال الطحاوي. ومع رواية «بروكلين هايتس» التي نشرت عام 2010 نجدنا، وربما للمرة الاولى، أمام مغتربة عربية تمثل الشرق في هذا اللقاء الحضاري مع المجتمع الغربي ـ الأمريكي وهذا تحول لافت للنظر (انظر كتابنا، «أمريكا في مرآة عربية»، 2011).

نقدم للقارئ في هذا الكتاب نماذج مهمة من الروايات العربية التي وقعت أحداثها في أوروبا وقدّمت شخصيات أوروبية، والتي تغطي الفترة الواقعة بين 1935 وحتى عام 1967، ونأمل في المستقبل القريب أن ننشر دراسة تحليلية عن صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث كما تتجلى في هذه المختارات.

كمال عبد الملك ومنى الكحلة

دبي، يناير 2011

المقدمة

أوروبا والإسلام، ولم لا يتفاهمان؟

محمد حسين هيكل

أوروبا والإسلام، ولم لا يتفاهمان؟[1]

أما أنه ليس هناك تفاهم بين أوروبا والإسلام فهذا أمر لا شك فيه، غير أن كثيراً من الأوروبيين يرجعون هذا إلى الدين، وهم يقولون إن المسيحية والإسلام عاشا في خصومة مستمرة منذ ثلاثة عشر قرناً. ولذلك كان من الطبيعي أن ينشب بينهما الخلاف، وأن لا يتم التفاهم بين أوروبا والإسلام. تلك فكرة مخطئة، وإذا كان فيها ظل من الحقيقة فهو بمقدار ما في قولنا إن فرنسا وإنجلترا لم تستطيعا التفاهم قبل سنة 1914. فقد

---

(1) وكانت صحيفة ـ الكاييه دي سيد ـ التي تصدر في فرنسا قد بعثت إلى الدكتور هيكل تطلب إليه أن يكتب مقالا بالفرنسية لينشر في العدد الذي خصصته هذه الصحيفة ـ للإسلام والغرب ـ فبعث إليها بهذا المقال عن أسباب عدم فهم أوروبا للإسلام وما يراه من الوسائل الكفيلة بخلق تفاهم بينهما. وقد ترجمه الأستاذ أحمد عبد الغفار المحامي.

كانتا قبل هذا التاريخ عدوتين كأشد ما تكون عداوة ونفرة وخصاماً. وليس من السهل على إنسان يحكم عقله في ما يعرض له من مظاهر أن يقبل نقاشاً من هذا النوع، إذ إن هاتين الدولتين متفاهمتان تفاهماً تاماً، وليست الأفكار الديموقراطية التي شاعت في فرنسا سنة 1789 إلا نفس الأفكار التي جاءت بها الثورة الإنجليزية في سنة 1688، وهي التي هيأت لما نتج عنها تطورات. وهذا نفس ما وقع بين أوروبا والإسلام. فإن أوروبا قد استفادت كثيراً من الجهود العلمية والفلسفية التي جاءت بها الدولة العباسية في العصور الوسطى. ولا أحسب أني أُتهم بالمغالاة إذ قلت إن المسلمين هم الذين فتحوا عيون أوروبا على الحضارة والفلسفة اليونانية، وذلك عن طريق نقل آثار أفلاطون وأرسطاليس إلى العربية وتعليقهم على هذه الآثار. ولم يمنع الدين المسيحي ولا الدين الإسلامي أن تستفيد أوروبا من هذا الجهد الإسلامي.

ودليل آخر على أن هذه فكرة مخطئة هو أن كلاًّ من المسيحية والإسلام إنما يشيران إلى نفس الآراء في ما يختص بالكون. فقصة التكوين، والخير والشر، والخلق كله، والأوامر والنواهي، واحدة في كلا الدينين. فليس بين الدينين من خلاف إلا في فكرة الوحدانية في الإسلام وموقفه من فكرة التثليث، وفي بعض الوقائع التاريخية التي تتعلق بأنباء النبيين. غير أن هذه الخلافات ـ التي لا تمس الجوهر ـ ليس من شأنها أن تهدم

التفاهم. أو تقيم خلافاً كالذي دفع إلى الحروب الصليبية قديماً، والذي لا يزال حياً الآن بين أوروبا والمسلمين.

ومن ناحية أخرى فإن أوروبا تدعي أنها تطورت وأنها خرجت من الدائرة اللاهوتية ودائرة ما وراء المادة إلى الحالة الوضعية. وهذه الحالة التي تدعي أوروبا اصطناعها لا تساعد على جعل الدين أساساً لصلات الاجتماع، في حين أن المصالح الاقتصادية استطاعت أن تشعل نيران أكبر حرب عرفتها الإنسانية حتى اليوم.

ومعنى هذا أن تلك الحالة الوضعية لا تبيح أن يكون الدين ـ وفقاً لمنطقها ذاته ـ سبباً في استبعاد التفاهم بين شعبين، بل بين أوروبا والمسلمين.

وقد يقول أحد الأوروبيين: حقاً إن الدين ليس في ذاته سبباً في عدم التفاهم هذا، ولكن هذا لا يمنع أن يكون تعصب المسلمين هو السبب في تلك الحالة التي يتبادل فيها الأوروبيون والمسلمون العداء. وهذا الكلام ليس أكثر ابتعاداً عن الصواب مما قدمنا، فلست أتردد في أن أقول إنه إذا كان هناك تعصب فعلاً، فإن هذا التعصب ليس من بضاعة المسلمين، ولست ألقي هذا القول جزافاً، فإن الحقائق كلها تؤيد ما أذهب إليه. فلما جاء «بونابرت» إلى مصر في سنة 1798، لجأ إلى العلماء لكي يمدوه بالمساعدة في إدارة البلاد. وإذا كانت غزوة «بونابرت» لم تنجح في مصر بعد رحيله عنها، فذلك لأن القائمين عليها إذ ذاك

أغفلوا الشعور الوطني متأثرين بالتعصب الديني. ولو قد كان التعصب لدى المصريين على هذه الصورة التي يتخيلها الأوروبيون لكانت، تكفي تصريحات «نابليون» و«كليبر» و«مينو». وقد كان العلماء الدينيون في مصر معهم، كانت تكفي هذه التصريحات لكسب شعور البلد، ولكنهم فشلوا لأن النزعة الوطنية كانت أقوى من التعصب الديني عند الأهلين ولذلك لم يستطع لا نابليون ولا من خلفه على الحملة الفرنسية أن يكسبوا المصريين في صفهم.

وحقيقه أخرى تثبت بوضوح أن التعصب الديني منعدم تماماً عند المسلمين. ذلك أن أغلبية البلاد الإسلامية ـ إبان الحرب الكبرى ـ انضمت إلى صف الحلفاء، مع أن تركيا وحدها هي التي انضمت إلى ألمانيا، ولقد فشلت الدعاية القوية التي بذلتها تركيا لإنعاش هذا التعصب الديني المزعوم لكي تضم البلاد الإسلامية إلى جانبها، والسبب في هذا أن البلاد الإسلامية كانت إذ ذاك لا يدفعها إلا الشعور الوطني ومصالحها المستقبلة.

وحقيقة ثالثة تثبت أن هذا التعصب لا وجود له، هي تركيا الحالية. فقد اتجهت بكل جهودها إلى أوروبا لكي تقتبس منها ما يعيد إليها شبابها. ولست في مقام الحكم على مدى نجاحها في هذا السبيل، ولكن كونها وبقاءها إلى الآن بلداً إسلامياً، قد أظهرا بمسلكها هذا أنه لا الدين ولا التعصب يمكن أن يكون سبباً لعدم التفاهم بين أوروبا والمسلمين.

ولكي نتعرف على هذه الأسباب يجدر بنا أن نستعيد جانباً

من التاريخ. فبعد وفاة النبي العربي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بثلاثين سنة، أنشأ المسلمون إمبراطورية إسلامية واسعة النطاق. ولم تكن فكرة الاستعمار هي التي تدفع المسلمين للغزو لينشروا ما آمنوا به في كل الأنحاء وليمحوا آثار الوثنية. وبعد ذلك بمائة عام قام المسلمون بغزوات أخرى. وكان نفس هذا الباعث هو الذي يدفع المسلمين، ولكن بحرارة أقل. وحماس ديني أقل. فقد كانت فكرة الغزو للغزو في هذه الآونة، وفكرة الاستعمار حباً في الاستعمار، تساوي تماماً فكرة نشر الدين الجديد.

وبعد ذلك بخمسين سنة قام المسلمون بغزوات أخرى. ولكن في هذه المرة لم يكن الباعث الديني هو الذي يحمل المسلمين على الغزو، بل كانت فكرة الغزو للغزو، والسبب في هذا واضح، فقد كان الإسلام منتصراً كل الانتصار فلم يعد في حاجة إلى زيادة التوسع بقدر ما كان المسلمون أنفسهم في حاجة إلى غزو بلاد جديدة تدفعهم فكرة الاستعمار. وهذا التطور من فكرة نشر الدين أيماناً بوجوب نشره، إلى فكرة الاستعمار للاستعمار يعتبره الكثيرون السبب في قيام الحروب الصليبية. ومع ذلك فإن المؤرخين يذهبون إلى القول بأن الحروب الصليبية هي حروب سياسية بقدر ما هي حروب دينية، وأن الملوك الذين اشتركوا فيها لم يلجأوا إلى الشعور الديني عند رعاياهم إلا لاستثارتهم وزيادة حماستهم وزيادة القوة المعنوية بين صفوفهم.

ومرت بعد ذلك قرون حتى انتهى الأمر باستيلاء الأتراك

على «إستانبول» في القرن الخامس عشر. وكان أثر هذه الحملة الآسيوية التي قام بها الأتراك في البلاد الإسلامية عكس أثرها في أوروبا. فقد شعرت شعوب أوروبا بهزة أيقظتها من سبات القرون الوسطى. وأما في البلاد الإسلامية فإن الأمر يختلف عن ذلك. فلم يكن بين الشعب الغازي والمسلمين أية علاقة تجمعهم جميعاً إلا علاقة الدين، لا علاقة الجنس، ولا علاقة اللغة، ولا علاقة التفكير. وأما الدين فلم يكن في نظر الأتراك إلا راية للحرب تتخذ وسيلة لعقاب كل بلد إسلامي لا يخضع لهم. وقد ترتب على هذا أن العالم الإسلامي راح في سبات عميق عند غزو «إستانبول» في حين أن أوروبا بدأت تستيقظ على دوي هذا الغزو وتتجه إلى حياتين ذهنية وروحية جديدتين.

بيد أن هذه النهضة الأوروبية لا تشابه تلك النهضة الروحية التي كانت شبه جزيرة العرب مسرحاً لها قبل ثمانية قرون تحت تأثير ما بعث به محمد من الحق.

وليست النهضة الدينية التي أظهرت «لوثر» إذ ذاك إلا خلافاً على تفاصيل الدين لا على جوهره، وذلك فإنه ليس يمكن أن تقارن هذه النهضة بما كان من نهضة الإسلام الأول. ولذلك كانت ثورة «لوثر» أقل من أن تؤثر في أوروبا كله، وأن تكن قد عبدت الطريق لمذهب «ديكارت» وللفلسفة الوضعية بعد ذلك. وبينما كان هذا التطور العقلي يهز أوروبا، كان مبدأ القوميات يتأكد في الأذهان تمهيداً لأن يكون قاعدة للحياة السياسية

المستقبلة. ومن الحق أن نقول إن هذا المبدأ كان دائماً موجوداً في أوروبا، ولكنه لم يكن بمثل القوة التي ظهر بها بعد عصر النهضة وإحياء العلوم. وقد اقتضى هذا المبدأ من الدول الأوروبية أن توسع من نفوذها خارج أوروبا تفادياً لقيام حرب بينها في داخلها. وهكذا بدأت السياسة الاستعمارية تشق طريقها في أوروبا، تلك السياسة التي تكّون السبب الحقيقي لعدم التفاهم القائم بين أوروبا والإسلام.

ولنشرح هذا قليلاً؛ ففي غضون القرن السابع عشر نصح الفيلسوف الكبير «ليبتز» لويس السادس عشر، أن يحفر قناة تصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، ولم يكن غرض «ليبتز» بالطبيعة من هذه النصيحة نشر فلسفته، بل كان الغرض الذي يرمي إليه هو فتح الطريق أمام التوسع الأوروبي في أفريقيا وآسيا. فقد كان لإسبانيا مستعمراتها في أمريكا وكانت تدر عليها الذهب، فكان من الضروري أن يكون لغيرها من الدول مستعمرات كذلك. وفي نفس الوقت انتهت المفاوضات التي كانت جارية مع تركيا إذ ذاك بمنح المسيحيين الذين يقيمون في البلاد الإسلامية امتيازات من شأنها أن تسهل لهم الإقامة والانجاز. ولم يكن أحد يفكر عندئذ في إدخال المدنية إلى الشرق، ذلك الادعاء العبقري الجميل الذي لجأت إليه الدول الأوروبية لتبرير الاستعمار بعد ذلك بقرنين. هذا وقد منح الباب العالي امتيازات للدول المختلفة للوصول في النهاية إلى شرط أول

الدول بالمراعاة. وهكذا رسخت التجارة الأوروبية في الشرق توطئة للحضارة الاستعمارية.

وقع بعد ذلك حدث ـ لست أدري أكان وقوعه لحسن الحظ أم لسوئه ـ ساعد على رسوخ هذه الحضارة الاستعمارية، ذلك هو الصناعة الكبرى. فلكي تجد الدول الأوروبية الأسواق اللازمة لاستهلاك ما تخرجه صناعتها الكبيرة من منتجات. أخذت هذه البلاد تتنافس في غزو المستعمرات. وكانت الفكرة في هذا إيجاد أسواق جديدة للمنتجات الصناعية والبحث عن حقول جديدة كذلك لإنتاج المواد الخام.

وكانت هذه الروح الاستعمارية في إبان سطوتها عندما انفجرت الثورة الفرنسية فهزت أوروبا من أقصاها إلى أقصاها بما أشاعته من فكر عن الحرية والأخاء والمساواة. وبما جاهدت في سبيله من توطيد لحق الشعب في حكم نفسه، ومن وضع لقواعد الديمقراطية الحالية.

ولكن كيف يمكن أن نوفق بين هاتين الفكرتين المتناقضتين: الحرية، والاستعمار؟ من العسير حقاً أن نفهم هاتين الفكرتين معاً، ولكن أصحاب الثورة الفرنسية لم يترددوا لحظة أمام هذه الصعوبة في التوفيق بين الفكرتين. فلقد قالوا إن المبادئ الجديدة التي جاءت بها الثورة الفرنسية يجب أن تظل محصورة ضمن أوروبا فلا تتعداها. وعندما جاء «نابليون» إلى مصر، لم يكن مدفوعاً إلى اجتياز البحر الأبيض بدافع الحرية. ولكنه كان

مدفوعاً بمقاومة وضع اليد الإنجليزية على مصر توطئة لعرقلة النفوذ البريطاني في الهند. إذاً فقد كانت فكرة الاستعمار، والاستعمار فقط، هي التي تحكم نشاط كل من إنجلترا وفرنسا في مصر. ولذلك فإن هذه المبادئ التي نادت بها الثورة الفرنسية، مبادئ الحرية والمساواة والإخاء لم تقف قط عقبة في سبيل تقدم أوروبا في الشرق وفي البلاد الإسلامية.

بيد أنه من الواجب ـ إلى جانب هذا الدافع الحقيقي ـ أن تبحث أوروبا عن علة أخرى تبرر بها الغزو الأوروبي للبلاد الشرقية. ولم يكن البحث عن هذه العلة بالشيء العسير. فإن هذه الشعوب المستعمرة شعوب أولية ومن الحق على أوروبا أن تعلّم هذه الشعوب، وأن ترفعها إلى مستوى الحضارة الجديدة، وأن تكوّنها وتدرّبها بحيث تستطيع أن تحكم نفسها وفقاً للآراء الديمقراطية. كانت تلك هي العلة التي استترت أوروبا رداءها، وإنها لعلة عبقرية حقاً. فلو كانت هذه العواطف صادقة، ولو كانت أوروبا مخلصة في ما تريد أن توطد قدمها من أجله في الشرق، لكان واجباً على هذه الشعوب الشرقية أن تتبادل التهنئة على روح العطف على الآخرين التي تبدو من أوروبا إذ ذاك.

ولقد آمنت هذه الشعوب الشرقية بسذاجة تامة بهذا الإخلاص الذي أبدته أوروبا ورغبت بكل قواها أن تقتبس الحضارة والثقافة الأوروبية. ولكنها سرعان ما تبينت أن لا مواءمة هناك بين هذه الجهود التي تبذلها وبين الأغراض

الحقيقة لهؤلاء الأسياد الذين كانوا يحكمون أقدار هذه الشعوب عندئذ. فالحضارة الأوروبية إنما تقوم في الواقع على العلم وعلى رأس المال الصناعي وأرادت الشعوب الشرقية أن تستعيد القرون الثلاثة التي سبقتها بها أوروبا، فحسبت أن مبادئ الإخاء والمساواة من شأنها أن تملي على أوروبا واجب الأخذ بيد هذه الشعوب لكي تحصل على نصيبها من العلوم ومن رأس المال المستغل في الصناعة، كما كان الحال مع المسيحيين الأُوَل والمسلمين الأُوَل الذين حاولوا بكل ما يملكون من جهد أن ينشروا ما جاءت به المسيحية والإسلام؛ ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. ومنذ أوائل القرن التاسع عشر رغب المصريون اصطناع العلوم والصناعات في بلادهم، وساعدتهم الظروف على مواتاة أملهم هذا، ثم نما هذا الأمل بعد الاحتلال البريطاني، فقد كان من حق المصريين أن يعتقدوا أن إنجلترا سوف تصدّر لمصر - في ما تصدر من مصنوعات منتجاتنا القطنية - حضارتها الجديدة كذلك. فانتظر المصريون أن يروا إنشاء الجامعات، ونشر التعليم العام، وإنهاض الصناعات الكبيرة. ولكن هذا الأمل ما لبث أن خبا، فقد اتهمت البلد المغزو بأنه بلد بعيد عن الحضارة، وأن هذا ناشئ عن الدين الإسلامي.

ولقد جاهر «اللورد كرومر» ممثل بريطانيا العظمى في مصر - في تقاريره الرسمية - أن الغرض من التعليم يجب ألا يتعدى إخراج موظفين مطيعين يعملون في الإدارة. ولم يكن يهم إنجلترا أن تتقدم مصر في ناحية من النواحي إلا في إنتاج القطن

والمواد الخام التي يحتاج إليها الاستهلاك البريطاني وتحتاج إليها الصناعة البريطانية، ويجب أن نعترف أن إنجلترا بذلت مجهودات هائلة لتحسين إنتاج القطن وغيره من المواد الخام. غير أن أي طلب ينصب على إنشاء صناعة كيفما كانت يوظف فيها رأس المال المصري، كل طلب من هذا الطراز كان يقابل بالرفض البات، أو بوضع عقبات ـ لا يمكن التغلب عليها ـ في طريقه. وما حدث في مصر حدث في غيرها من البلاد المستعمرة. ولم يكن التنافس الاستعماري المسرف غير الدافع لغليوم الثاني على أن يقول إن مستقبل ألمانيا ليس إلا في البحر، ولم يكن إلا الدافع إلى إعلان السلام المسلح، الذي أملى على أوروبا أن تنفق مئات الملايين في التسليح، ولم يكن إلا الباعث على نشوب الحرب العظمى في سنة 1914. وسياسة كهذه لا يمكن أن تطمئن إلى غدها، ولا يمكن أن تضع ثقتها في شيء، ولذلك لم يكن لأوروبا بطبيعة الحال ثقة في مستعمراتها، ولم يكن للبلاد المستعمرة ـ باب أول ـ ثقة في نوايا أوروبا، ومن أجل هذا كان عسيراً أن يقوم تفاهم بين أوروبا والإسلام.

ولم يكن للشعوب المستعمرة ثقة في أوروبا، ليس فقط لأن أوروبا كانت تعاملها باعتبارها شعوباً غير متحضرة، ولكن لأنها كانت تطبق في مستعمراتها الآراء التي حكمت عليها ـ داخل بلادها الأوروبية ـ بأنها بالغة الضرر. فقد قررت فرنسا مثلاً فصل الكنيسة عن الدولة داخل بلادها، وقررت كذلك تجريد

رجال الكنيسة من أموالهم، وأعلنت بعد ذلك الحالة المدنية. ومع كل هذا فإن الحكومة الفرنسية المدنية تعطي أموالاً طائلة للبعثات الدينية التي تدّعي أنها تنشر المسيحية.

ومن الحق علينا أن نعترف بأن هذه البعثات الدينية ـ سواء منها الفرنسية والأمريكية والإنجليزية وغيرها ـ قد قامت بأعمال إنسانية في الشرق، فقد أسست هذه البعثات معاهد علمية، ومستشفيات ومؤسسات خيرية. ولكن البعثات المدنية قامت كذلك بأعمال كثيره من هذا الطراز. والواقع أننا لا نستطيع أن نفسر هذا التناقض الظاهر في مسلك الحكومات الأوروبية، إذ إن هذه الحكومات تطارد البعثات الدينية من بلادها لكي تحميها في الخارج، فإن لم يكن الباعث على هذه الروح السياسية الاستعمارية لما عاملت البلاد المستعمرة غيرها من البلاد وفق المبادئ التي قامت الثورات ضدها عند الأمم الأوروبية.

ومن العوامل التي ساعدت على عدم قيام تفاهم بين أوروبا والإسلام، هجرة العناصر غير المرغوب فيها في البلاد الأوروبية إلى البلاد المستعمرة بحثاً عن الثروة دون إقامة أدنى وزن للوسائل والأساليب التي يستخدمونها في ما هم بسبيله من غرض. ويكفي أن يقرأ الإنسان إلى أي درك تنحط هذه الوسائل والأساليب في أغلب الأحيان، ولكي يعرف أن الربا قد يكون أقرب هذه الوسائل إلى الخير والفضيلة.

وعندما خاب أمل الشعوب الإسلامية ـ كما وضحنا ذلك ـ

في نيات أوروبا، أحست هذه الشعوب، قبل الحرب الكبرى بعدة سنين، أن من واجبها ألا تعتمد إلا على مجهودها الخاص، ولم يكن أمل هذه الشعوب الإسلامية كبيراً في النجاح؟ ولكن يجب أن نعترف إلى جانب هذه الحقيقة التي قررناها، أن ضعف الأمل في النجاح لم يقف عائقاً دون هذه الشعوب وما تبتغي من الأغراض، بل لم يمنعها هذا من الاستزادة من النشاط مع الإيمان دائماً بالعدالة الإلهية العالية.

ولشد ما كانت دهشة هذه الشعوب عندما اندلعت أول شرارة للحرب العظمى في الثاني من أغسطس سنة 1914: ففي غضون المدة الطويلة التي استمرت فيها الحرب كانت دعاية الحلفاء التي تنادي بأنها تحارب الروح العسكرية الألمانية لكي تنصر الحرية، والوعود التي كان يبذلها هؤلاء للشعوب المستعمَرة، والمبادئ التي جاءت بها الهدنة، وخاصة الاعتراف بحق الشعوب في تقرير مصيرها ـ كل هذه أمور كان من شأنها أن تفتح أمام الشعوب المسلمة آفاقاً جديدة وبالأخص أمام الشعوب التي انتصرت لقضية الحلفاء.

وإذ انتهت الحرب، ووقِّعت المعاهدات، أخذت آمال هذه الشعوب تذوي!! أكانت إذاً خدعة من أوروبا عندما قام من ينادون بحق تقرير المصير؟ أكان إذاً خدعة ذلك النضال ضد الروح العسكرية الألمانية؟ وهل بقيت أوروبا ما بعد الحرب إزاء الشعوب الإسلامية هي أوروبا ما قبل الحرب؟ لقد كانت خيبة

الأمل في ذلك كله أكبر من الآمال التي عقدتها هذه الشعوب على أوروبا.

بيد أن شيئاً لا يمنع من قيام تفاهم متبادل بين أوروبا والإسلام إذا وُجد الرجال ذوو العزائم من الناحيتين، الذين يأخذون على عاتقهم القيام بهذا العبء الضخم.

ولكن أين يوجد هؤلاء الرجال؟ أبَيْن الكتاب والفلاسفة ورجال العلوم؟ أعتقد أن من الواجب عليَّ أن أقول ـ دون أن أخدش جميع من ذكرت ـ إن هؤلاء كلهم يتحملون نصيباً كبيراً من المسؤولية عن عدم قيام عدم التفاهم الحالي بين أوروبا والإسلام، إذ إن الأغلبية منهم تنسى أن لهم رسالة إنسانية، رسالة لا تعرف حدود الدول السياسية، فهؤلاء الكتّاب والفلاسفة وأصحاب العلوم يضعون نبوغهم وعبقريتهم في خدمة سياسة بلادهم القومية؛ وليس من ينكر أن هذا واجب عليهم إذا تعرضت أوطانهم للأخطار. ولكن هذه الأخطار قليلة الحدوث في الغالب، ومن واجب رجال السياسة أن يسيّروا أمور الوطن وقت السلم تسييراً يكون من نتائجه الابتعاد عما يوقد نيران الحرب، ففي هذه الأوقات، من الحق على أصحاب العلوم الإنسانية من الكتّاب وغيرهم من رجال الفكر، أن يسخّروا جهودهم لخدمة قضية الحرية والتعاون بين الشعوب.

وحرية الشعوب التي نعنيها شبيهة بحرية الأفراد. يحترمها الجميع ويعترف بها الجميع، دون نظر لثرواتهم أو لقواهم

المادية، وتعاون الشعوب الذي نمنيه تعاون قائم على القاعدة السابقة بين الأمم. وحسبنا بهذه وسيلة للتفاهم المرموق.

ولكن هل يمكن أن ينجح الإنسان في دفع رجال الفكر في العالم إلى طريق كهذا الطريق؟ تلك هي المشكلة، ذلك أن المصالح المادية ـ لسوء الحظ ـ من القوة بحيث لا تجعله محلاً للأمل العريض. فهذه المصالح حتى الآن هي التي تدير النشاط في العالم، بل إنها تدير حياته الروحية والخلقية. غير أننا لا يجوز أن نيأس. فإن كثيرين يعتقدون أننا الآن في سبيل بعث أكبر من البعث الذي رأته أوروبا في القرن السادس عشر في عصر النهضة وإحياء العلوم، وأن هذا البعث لن يقتصر على أوروبا، بل إنه سوف يشمل دول العالم جميعاً. وسيكون هذا البعث نتيجة طبيعية لهذه الحرب الاقتصادية المستمرة بين الشعوب ليس في أوروبا فحسب، ولكن في آسيا وأمريكا كذلك. فلنؤمل إذاً في أن يقترب موعد حرية الشعوب والتعاون بينها لسعادة الجميع ورفاهة الجميع.

ويومذاك، لن يوجد عدم التفاهم بين أوروبا والإسلام، بل سيوجد تفاهم عالمي للوصول إلى الحقائق الخلقية العالية ولتوطيد السلام بإقامة الحياة الخلقية على البصيرة الروحية والحياة الاقتصادية على الحياة الخلقية.

مختارات

من النصوص الروائية

«أديب»

طه حسين (1935)

طه حسين (15 نوفمبر 1889 ـ 1973) أديب وناقد وتربوي وتنويري مصري كبير، لُقّب بعميد الأدب العربي. نشر عدداً من الروايات العربية، وله كتاب سجل فيه سيرته الذاتية تحت عنوان «الأيام» نشره عام 1929. يُعتبر من أبرز الشخصيات في الحركة العربية الأدبية الحديثة ومن أبرز دعاة التنوير في العالم العربي.

دخل طه سنة 1902 الأزهر لدراسة العلوم العربية والإسلامية، ونال شهادته التي تخوّله التخصص في الجامعة ولما فتحت الجامعة المصرية أبوابها سنة 1908 كان طه حسين أول المنتسبين إليها، فدرس العلوم العصرية، والحضارة الإسلامية، والتاريخ والجغرافيا، وعدداً من اللغات الشرقية كالعبرية والسريانية، وإن ظل يتردد خلال تلك الحقبة على حضور دروس الأزهر والمشاركة في ندواته اللغوية والإسلامية. دأب على هذا العمل حتى سنة 1914، وهي السنة التي نال فيها شهادة الدكتوراه، وكان موضوع رسالته هو:«ذكرى أبي العلاء»، ما أثار

ضجة في الأوساط الدينية المتزمتة، وفي العام نفسه أوفدته الجامعة المصرية إلى مونبيليه بفرنسا، لمتابعة التخصص والاستزادة من فروع المعرفة والعلوم العصرية، فدرس في جامعتها الفرنسية والأدب، وعلم النفس والتاريخ الحديث. بقي هناك حتى سنة 1915، سنة عودته إلى مصر، فأقام فيها حوالي ثلاثة أشهر أثار خلالها معارك وخصومات متعددة، محورها الكبير بين تدريس الأزهر وتدريس الجامعات الغربية، ما حدا بالمسؤولين إلى اتخاذ قرار بحرمانه من المنحة المعطاة له لتغطية نفقات دراسته في الخارج، لكن تدخل السلطان حسين كامل حال دون تطبيق هذا القرار، فعاد إلى فرنسا من جديد، لمتابعة التحصيل العلمي، ولكن في العاصمة باريس. فدرس في جامعتها علم الاجتماع والتاريخ اليوناني والروماني والتاريخ الحديث وأعد خلالها رسالة الدكتوراه الثانية وعنوانها: «الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون». كان ذلك سنة 1918، وفي غضون تلك الأعوام تزوج من سوزان بريسو الفرنسية السويسرية التي ساعدته على الاطلاع أكثر فأكثر بالفرنسية واللاتينية، فتمكن من الثقافة الغربية إلى حد بعيد. كان لهذه السيدة عظيم الأثر في حياته، فقامت له بدور القارئ وقرأت عليه الكثير من المراجع، وأمدته بالكتب التي تمت كتابتها بطريقة بريل حتى تساعده على القراءة بنفسه، كما كانت الزوجة والصديق الذي دفعه للتقدم دائماً، وقد أحبها طه حسين حباً جماً، ومما قاله فيها إنه «منذ أن سمع صوتها لم يعرف قلبه الألم».

وإبان عودته إلى مصر سنة 1919 عُيِّن طه حسين أستاذاً للتاريخ اليوناني والروماني في الجامعة المصرية، وكانت جامعة أهلية، فلما أُلحقت بالدولة سنة 1925 عينته وزارة المعارف أستاذاً فيها للأدب العربي، فعميداً لكلية الآداب في الجامعة نفسها، وذلك سنة 1928.

تسلم رئاسة تحرير «الجمهورية» إلى حين. نشر ست روايات من بينها «أديب» و«دعاء الكروان» وهي روايات كان لها أثر عند أدباء كثيرين منهم نجيب محفوظ. أهدته الأمم المتحدة جائزة حقوق الإنسان قبل وفاته في عام 1973.

أعماله:

- في الشعر الجاهلي.
- الأيام.
- دعاء الكروان.
- شجرة البؤس.
- المعذبون في الأرض.
- على هامش السيرة.
- حديث الأربعاء.
- من حديث الشعر والنثر.
- مستقبل الثقافة في مصر.

- أديب
- مرآة الإسلام
- الشيخان
- الوعد الحق
- جنة الشوك
- مع أبي العلاء في سجنه
- في تجديد ذكرى أبي العلاء

الرواية:

رواية «أديب» هي سيرة الكثيرين من المثقفين العرب في بداية القرن العشرين الذين انبهروا كثيراً بحضارة الغرب وانساقوا وراء نزواتهم، والذين نظروا للغرب على أنه رمز للحرية والعلم والتقدم والإشباع غير المسؤول لكل المكبوتات الدفينة، وهذا ما عبّر عنه عدد من الروايات العربية كرواية «الحي اللاتيني» لسهيل إدريس، و«موسم الهجرة للشمال» للطيب صالح، و«عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم، و«قنديل أم هاشم» ليحيى حقي. ومن ثم، تصوّر هذه الرواية الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، والتقابل بين عالم الكبت وعالم التحرر، وبين عالم التخلف وعالم التقدم، وبين الانحطاط والرقي الحضاري. لذلك كان ينظر أديب إلى مصر وزوجته حميدة بنظرة تغاير نظرته

إلى فرنند وفرنسا. إذاً، هناك جدلية وتفاوت بين هذين العالمين حتى إن أديب لم يرد العودة إلى بلده لما قامت الحرب على فرنسا، وكان يتمنى الدفاع عن هذا البلد في وجه النازية؛ لأن هذا البلد يقترن في ذاكرته بالحب والحرية والإشباع الجنسي، أما بلده فيقترن بالكبت والحرمان وصعوبة تحمل المسؤولية.

في النهاية يخسر أديب زوجته حميدة التي طلقها وتركها تنتظره على أمل أن يستكمل دراسته، كما يترك والديه يتعذبان ويشتاقان إليه كثيراً وهو لا يكن لهما أي شيء من الطاعة والحب والاحترام، بعد أن أودت به الغربة إلى عالم الجنون.

○○○

يونيو في...

ليتني لم أسمع لك أيها الصديق، فقد كنت أوثر أن أرتحل إلى فرنسا دون أن أذهب إلى ريفنا الحزين لأرى أبوَيّ وأسرتي ولأرى قريتنا، ولأملأ نفسي من هذه المشاهد الجميلة التي نشأت فيها، وكنت أرى أني سأجد في هذه الرحلة القصيرة إلى الريف آلاماً يحسن أن أتجنبها، وأن أستقبل الحياة الجديدة بنفس مشرقة وقلب لا يجد حزناً، ولا يحس لوعة، ولا يأسى على شيء. وأنا أكره الوداع وأرى في السفر ـ كما يقول بعض الشعراء الفرنج ـ نوعاً من الموت، ولا أحب أن ألتقي الموت مهما يكن

يسيراً على علم به، وانتظار له، وإشفاق منه. وإنما أوثر أن يفاجئني مفاجأة، وأن يختطفني اختطافاً، وأن أخرج من الحياة جاهلاً بخروجي منها كما أقبلت على الحياة جاهلاً بإقبالي عليها.

لقد كنت شديد التردد في الذهاب إلى الريف، أحس من نفسي ضعفاً شديداً على احتمال هذا الوداع المؤلم، وداع هذين الشيخين اللذين لم يكونا يحتملان إقامتي في القاهرة بعيداً عنهما إلا كارهين، فكيف بهما إذا علما أني لن أقيم في القاهرة. ولن تكون بينهما وبيني ساعات، ولكني سأعبر البحر المريض إلى بلاد نائية لا تُحسب المسافة بيننا وبينها بالساعات، وإنما تحسب بالأيام. لقد كانا يكرهان أشد الكره إقامتي في القاهرة، هذه المدينة التي لا يتكلم أهلها كما نتكلم، ولا يعيش أهلها كما نعيش، والتي يملؤها الفساد ويملؤها الصلاح في وقت واحد، والتي يجري في شوارعها الترام، والتي يكثر بين أهلها المحتالون والسراق، والتي يخرج الرجل من بيته فيها فلعله لا يعود إليه. فكيف بهما حين يعلمان أني سأقيم في ذلك البلد البعيد الغريب الذي لا صلة بينه وبيننا في لون من ألوان حياتنا المعروفة، والذي لا يعلمان من أمره إلا أنه بلد الفتنة والعبث وموطن اللهو والمجون، أليس إليه يقصد السراة وكبار الأغنياء والمترفين من سادات الريف إذا اجتمعت لهم المقادير الضخمة

من الذهب؟ فلا يكادون يقضون فيه الصيف حتى يعودوا وقد صفرت أيديهم من كل شيء، وهم يقصون من أنبائه وأحاديث العبث والفسوق فيه ما تشيب له الأطفال، وترتاع له نفوس الرجال. لقد كنت أقدّر هذا كله حين كنت تجادلني في زيارة الريف قبل أن أبرح الأرض، ولكنك لا زلت تلح علي وتذكرني وتثير في نفسي العواطف والذكريات، حتى استحييت منك ومن أبويّ ومن الناس ومن نفسي أيضاً، ورأيت أني لا أستطيع أن أفارق مصر، دون أن أرى هذين الشيخين. فمن يدري! لعلي أذهب فلا أعود، ومن يدري! لعلي أعود فلا ألقاهما.

هنالك رحلت إلى الريف وليتني لم أفعل. فلم أكن أظن أني سألقى في هذا الريف ما لقيت من حزن لاذع وألم ممض وبأس لا صبر معه ولا احتمال له.

لا أصف لك جزع أمي ولا سخط أبي، فحسبك أن تعلم أن أمي لا تصيب الطعام إلا ما يقيم الأود، وهي لا تصيبه إلا بعد إلحاح متصل. وأنها لا تذوق النوم إلا غراراً، وأنها لا تمسك الدموع، وإنما ترسلها إرسالاً حتى تنقطع، وأنها تعتقد اعتقاد يقين أنها قد فقدت ابنها الذي كانت تحبه وتؤثره وتدخره للحوادث والنائبات. وهي تمقت الجامعة وأيام الجامعة والذين فكروا في الجامعة، وهي تمقت العلم والذين يحبون العلم ويدعون إليه، وهي تلعن المدارس وهذا التمدن الذي علم مصر فتح المدارس، وهي تأسف أشد الأسف وتندم أقسى الندم كلما ذكرت

ذلك اليوم الذي أراد فيه أبي أن يقلد أباك، فأخرجني من الكتاب كما أخرج أبوك من أخرج من إخوتك، وأرسلني معهم إلى المدرسة الابتدائية في عاصمة الإقليم، هنالك حيث طرحت زي الريف واتخذت هذا الزي الأوروبي، ووضعت على رأسي هذا الغطاء البغيض.

ولست أخفي عليك أنها تنال أسرتك بكثير من لاذع القول، فهي التي ألقت في روعنا أن من الخير أن يتعلم الأطفال في هذه المدارس، وأن يلبسوا الطربوش، وأن يلووا ألسنتهم بالرطانة الأجنبية، وأن يصبحوا موظفين. وهي لا تفهم كيف استطعنا أن نعدل بما تعودت أسرتنا منذ الزمن البعيد من الاختلاف إلى الأزهر حتى نحصّل شيئاً من علوم الدين ثم نعود إلى القرية حيث الجد والعمل، وحيث الغنى والثروة، وحيث الجاه وبعد الصيت.

لا أطيل عليك، فأمي ثائرة إذا أصبحت، ثائرة إذا أضحت، ثائرة إذا أقبل المساء، ثائرة إذا جنها الليل، ثائرة حتى امتلأ البيت حزناً وسخطاً وبكاء. فأما أبي فمتنكر متنمر، ينذر فيلح في النذير، ويتلطف فيلح في التلطف، فإذا أعياه النذير ولم يسعده الاستعطاف، خرج عن طوره فأسخط من حوله جميعاً، وجعل حياتهم لا تطاق، وأقسم جهد أيمانه ليقطعن ما بينه وبيني من سبب وليعيشن منذ الآن كأني لم أكن له ابناً. ولو أني استمعت لنفسي أيها الصديق لما أقمت في هذا الجحيم إلا يوماً أو يومين، ولأسرعت إلى القاهرة فانتظرت فيها معك ومع

أصدقائنا هذا اليوم السعيد الذي تقلع فيه السفينة بنا إلى هذا العالم الجديد الذي ملك عليّ نفسي كلها وقلبي كله.

ولكن كيف أستطيع أن أردع هذين الشيخين في ما هما فيه، ولمّا أبذل ما أقدر عليه من الجهد لأهون عليهما الأمر بعض الشيء، ولأردّهما إلى بعض الطمأنينة، ولأرحل عنهما وهما راضيان غير ساخطين. وإني لأجد في ذلك ما وسعني الجد، وأحتال لذلك ما واتتني الحيلة، وأستعين على ذلك ببعض من له حظ من فهم، ونصيب من ذكاء وعلم بحياتنا وما تقتضيه من تطور. وبما بين حياتنا في هذا العصر وحياة آبائنا قبل أن نولد أو حين كنا أطفالاً. وما أظن أني سأبلغ وحدي أو بمعونة هؤلاء الناس شيئاً. فأمي مستيقنة بأني إذا سافرت فقد فقدتني، وأبي مقتنع بأني إذ سافرت فقد قطعت بينه وبيني كل سبب.

في ذات يوم أصبحت ضيق الصدر كئيب النفس، شديد الحرج، ممتلئاً بهذا العجز المؤنس عن رضاء هذين الشيخين، كارهاً أشد الكره للدار والقرية ومن فيهما. فخرجت أهيم في الريف ألتمس راحة النفس في تعب الجسم، ولست أزعم أني خرجت أريد وجهة بعينها، أو أسعى إلى غاية معروفة، وإنما هو المشي، والإبعاد فيه، والخلوة إلى النفس، والفرار من لوم اللائمين، وعذل العاذلين، وإلحاح الملحين. وإني لأمضي أمامي لا أحفل بشيء ولا أقف عند شيء، وأكثر الظن أن كثيراً من الناس الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم قد لقوني فحيوني، وما

أشك في أنهم قد أنكروني لأني لم أسمع منهم، ولم أرد عليهم تحيتهم، ولعل كثيراً منهم قد تحدث إلى نفسه بأن هذا أول الشر، وبادرة الفساد، وأنه ليعرض عنا، ويكبر علينا، ولم يذهب إلى بلاد الفرنج بعد، فكيف به إذا ذهب إليها وعاد منها.

والله يشهد ما رأيتهم ولا سمعتهم، ولا أحسست مكانهم مني، إنما كنت مشغولاً بنفسي عنهم وعن كل شيء. وإنك لتعلم أني كثيراً ما حدثتك عن كلفي بالخروج إلى الريف. والتروُّض في الحقول أثناء هذا الفصل من العام، حين يكون الحصاد، وحين يشتد النشاط، وحين تنتشر في ريفنا هؤلاء الفتيات الفقيرات الحسان متبذلات بحكم الفقر. يطوّفن بالحقول ويلتمسن أقواتهن في التقاط ما يسقط من الحب. إنك لتعلم كلفي بالخروج في هذا الفصل، وأني أجد لذة حارة حادة في الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعي الذي تسبغه الحياة العاملة الجادة على أهل الريف حين يخرجون من أطوار الحمود والجمود، ويفنون في طبيعتهم هذه، ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والإنتاج، لهم جد الأداة وصدقها واستقامتها وصبرها وإعراضها عن الشكوى، وبعدها عن الملل والسأم. فما رأيك في أن هذا الجمال الذي يفتنني ويملك عليّ قلبي ويحملني على الرحلة إلى الريف إذا كان هذا الفصل من كل عام، لم يصل إلى قلبي، ولم ينته إلى نفسي في هذا اليوم. فلم أقف عند الأجران ولم أتحدث إلى المصيفات، ولم أداعب فتى ولا فتاة من هؤلاء الشباب الذين يملؤهم العمل نشاطاً ومرحاً ويقيناً وثقة وإيماناً. إنما مضيت

أمامي لا ألوي على شيء كأنما تدفعني قوة خفية إلى غاية خفية لم أتبيئنها ولم أتنبه لها، إلا فجأة حين رأيتني واقفاً جامداً، وحين أنكرت من نفسي هذا الوقوف وهذا الجمود ونظرت من حولي كأني أفقت من نوم عميق، فما يروعني إلا أن أراني واقفاً استظل بشجرات التوت عند الإبراهيمية، هناك حيث مدخل المدينة لمن أقبل عليها من الغرب.

تبارك الله، فلم أكن إذاً قد خرجت من دارنا ضيقاً بها وبمن فيها، ولم أكن إذاً قد خرجت من قريتنا فراراً منها ومن أهلها، ولم أكن إذاً قد همت في الريف التماساً للخلوة إلى نفسي والراحة مما كنت أظنه من عناء، وإنما خرجت من الدار وخرجت من القرية ومضيت في الريف أمامي لأني لم أكن أجد بداً من أن أزور هذه المدينة التي أنفقت فيها أحسن أيام الصبى، ومن أن ألم بهذه الربوع التي ذقت فيها أطيب ما ذقت في الحياة من لذة قوية طاهرة بريئة من كل إثم.

إذاً فلتعد إليَّ نفسي النافرة، وليثب إليَّ قلبي الجامح، وليراجعني هذا العقل المضطرب المشرد لأستجمع كل ما أستطيع أن أستجمعه من قوة الحس والعقل والشعور، لأستمتع بالحياة القوية الخصبة في هذه المدينة الحبيبة إلى نفسي، الكريمة على قلبي، ولآخذ منها بأعظم حظ ممكن من المتاع، أجعله زاداً لي في هذه الرحلة البعيدة التي أنا مقبل عليها، وأجعله ذخراً لي في هذه الإقامة الطويلة التي سأقيمها في ذلك البلد الغريب.

لأملأ إذاً عينيّ مما سأرى، ولأملأ إذاً أذني مما سأسمع ولأملأ إذاً نفسي وقلبي مما سأجد، وإني لأنظر فلا أكاد أرى إلا الإبراهيمية تمتد أمامي ويسعى فيها الماء هادئاً حلو السعي، وإلا هؤلاء الناس يسعون متفرقين، منهم المقبل من الغرب يحمل إلى المدينة ما يبعث إليها الريف من العروض، ومنهم الذاهب إلى الغرب يحمل إلى الريف ما تذيع المدينة فيه من التجارة. بعضهم راجل، وبعضهم راكب، وقليل منهم يتحدث إلى رفيق، وكثير منهم يغرق في الصمت كأنما يفكر في ما وراءه أو في ما أمامه. وقليل منهم يتغنى كأنه يستعين بالغناء أو يعين به دابته على احتمال السفر البعيد. وامرأة أو فتاة تأتي من حين إلى حين، فتغمس جرتها في الماء حتى إذا امتلأت رفعتها إلى رأسها ونهضت تسعى بها رشيقة رائعة الجمال غامضة في هذا الصمت الذي يحجب نفوس النساء، ويستر ما يجول فيها من خواطر يود الرجل لو يعرف منها بعض الشيء. وإني لأمد سمعي فلا أسمع إلا هذه الأصوات المختلفة التي تأتيني من هذه الحركات كلها، وهذا اللحن الحلو المتصل المتشابه الذي يأتيني من هذه الأطيار وقد استقرت على الغصون. وكأنها وجدت لذة الراحة وأحست رقة النسيم واستمتعت بخفض العيش بين هذه الأوراق النضرة، فهي تتغنى بالجمال واللذة والأمل وحب الحياة. وأني لأمد نفسي كلها فلا أحس إلا حياة هادئة قوية نقية تأتيني من كل وجه، من الحركات التي أرى، ومن الأصوات التي أسمع، ومن هذا النسيم الخفيف الذي يمسني مساً رقيقاً، فيرد إلي النشاط ويحيي في

نفسي الأمل، ويلقي عني كل ثقل، ويكاد يهبني جناحين، ويكاد يجعلني طائراً بين هذه الطير. ويكاد يرسل صوتي كما أرسل صوتها بالغناء، وأنا أقيم هنا في ظل شجرات التوت ساعةً، أنعم فيها بالراحة وأستمتع فيها بالحياة وأذكرك أيها الصديق. ثم أتهيأ للمضي أمامي ولأنقض على المدينة من هذا المنحدر، فرحاً مرحاً نشيطاً طروباً، كما ينقض النسر. وهأنذا أمضي وأقدر ما سألقى من المناظر وأريد أن أبلغ أول القناة، قناتنا أتذكرها؟ أريد أن أبلغ أولها وأن أتبع مجراها أسايره على الشاطئ الجنوبي حتى إذا بلغت ذلك المنحدر الذي تعرفه، ودعتها لحظة وانحدرت إلى المدينة لأمر بهذه الأماكن التي كنا نألفها. بالدكان وببيت أم محمود وبيت زنوبة. ثم أمضي حتى أبلغ شارعكم ولعلي أقف لحظة عند أوله فأتحدث إلى بمبة. أتذكر بمبة؟ تلك التي كانت تسرف في النوم وتسرف في الغطيط ويسمع الناس غطيطها في أكثر ساعات النهار، وفي كل ساعات الليل. إذا مروا أمام بيتها الصغير. من يدري! لعلي كنت أقف لحظة عند هذا البيت فأعبث بصاحبته وأسألها عن أصناف الجبن الذي تبيعه وجه النهار. ثم ألهو لحظة بابنها الأبله ذي الرأس الغريب. أتذكره؟ لقد كنا نسميه أبا الرؤوس. إنه لا يتكلم ولا يسمع، لا يكاد يعقل ومن يدري، لعلي كنت ألهو به لحظة ثم ألقي في يده أو يد أمه بعض النقود.

ثم أمضي في شارعكم نحو الشمال فأمر بهذه البيوت التي كثيراً ما نعمت فيها بالجد والهزل، وأقف عند بيتكم في هذا

المنعطف الصغير أمام الباب حيث تتدلى أغصان هذه العنبات التي كثيراً ما لعبنا في ظلها وأكلنا من ثمرها واتخذنا بينها الحدائق والحقول. ومن يدري! لعلي أجلس على هذه المصطبة الصغيرة عن يمين الباب إذا خرجت من البيت وأذكرك أو أذكر إخوتك، فكثيراً ما جلسنا عليها وكثيراً ما لعبنا الطاب. ومن يدري! لعل الذكرى أن تملأ نفسي وقلبي، وأن تنسيني نفسها وأن تخيل إلى أنها حاضرة لم تمض ولم تنقض أيامها، ولعلي أعتقد أني قد أقبلت لأوركم، ولعلي أطرق الباب وأنتظر أن أسمع من ورائه صوتاً معروفاً مألوفاً يسأل عن الطارق. وأنتظر أن يفتح، وأن أرى من دونه شخصاً معروفاً مألوفاً يرحب بي ويدعوني إلى الدخول. ثم أنظر فأرى شخصاً لم أعرفه ولم آلفه يسألني من أنا وماذا أريد، فأثوب إلى نفسي وأستأنف رحلتي وقد مثلت فصلاً من حياتي الأولى ووجدت في التمثيل مثل ما كنت أجد من اللذة حين كانت الحياة حقيقة واقعة.

ثم أستأنف رحلتي فأمضي أمامي نحو الشمال حتى أبلغ هذا المنحدر الذي كنا ننحدر منه بعد أن كنا نقضي ساعات على شاطئ القناة أو في حديقة جرجس أفندي عن شمالنا، أو في حديقة المعلم عن يميننا. فأرقى في هذا المنحدر حتى ألقى القناة فأتابع شاطئها في طريقي إلى المدينة.

وكنت أقدر هذا كله وأقدم لنفسي المتاع بهذا كله وأنا أمضي أمامي ملتمساً مخرج القناة من الإبراهيمية. ولكن ماذا أرى؟ وأين

أنا؟ وأين القناة؟ إني لأنظر فإذا الإبراهيمية تمتد وتمتد ويجري فيها الماء هادئاً يحمل الحياة والخصب، ولكن شاطئها من ناحية المدينة قد اعتدل واستقام، فليس فيه عوج وليست فيه فرجة يخرج منها الماء. أين القناة؟ لقد كانت تخرج من نحو هذا المكان وكانت تمضي غير بعيدة ثم يقام عليها جسر صغير تمر عليه بعض القطارات. ثم تمضي غير بعيد ونمضي معها فنبلغ هذا المنحدر الذي كان ينتهي بنا إلى المدينة. أين القناة؟ إني لا أراها ولا أجد لها أثراً، وأنما أرى شوارع وأرى دوراً تقوم في هذه الشوارع، وأرى معالم لم آلفها، ومناظر لم أرها من قبل. أتراني أخطأت المدينة؟ ومع ذلك فأنا أعرفها كما أعرف نفسي، وأستطيع أن أمشي فيها وأهتدي إلى مسالكها المختلفة دون أن أفتح عيني كما كنت تمشي فيها أنت أيها الصديق لا تحتاج إلى أن ترى ولا إلى من يهديك الطريق. أين القناة؟ لقد سلكت إلى المدينة الطريق التي سلكتها ألف مرة ومرة، فلست أشك في أني قد بلغتها، وبلغتها هي دون غيرها من المدن، فماذا أصابها بعدنا، وأين ذهبت القناة؟ إني لأريد أن أسأل فأجد حياء في نفسي من السؤال، ولكني أطيل الوقوف وأطيل النظر عن يمين وشمال، وأطيل النظر من أمام ومن وراء حتى يخيل إلي وإلى من كان يراني من الناس أني أبله قد فقدت الصواب. ثم لا أملك نفسي، وإذا أنا أسأل عن المدينة وعن القناة، وإذا أنا أسمع ويا شر ما أسمع. أني قد بلغت المدينة وأن القناة قد ماتت منذ زمن بعيد وأن معالم المدينة قد تغيرت منذ هدم معمل السكر، ماذا أسمع! معمل السكر

قد هدم، وماذا بقي إذاً في المدينة؟ أو ماذا جئت أرى في المدينة! ماتت القناة، وهدم معمل السكر! وغيرت المعالم؛ وانتقل أكثر من كنا نعرف في المدينة من الناس.

يا للحزن والأسى، يا للوعة والحسرة، يا لليأس والقنوط. أيبلغ العنف بالزمان أن يمحو هذا المقدار الضخم من حياة الناس في أعوام قصار. لقد جد جيل وجيل في إقامة معمل السكر وإقامة ما حوله من الدور، بل من القرى.لقد عاش جيل وجيل، بهذا المعمل ولهذا المعمل. لقد عاش جيل وجيل بهذه القناة ومن هذه القناة. فلكل هذا الجهد، ولك هذا العناء، وكل هذه الحياة، وكل هذه الذكرى، وكل ما كان على شاطئ القناة وحول معمل السكر من جد وهزل ومن لذة وألم، ومن حب وبغض، ومن أمل ويأس، ومن مكر ونصح، ومن خداع وإخلاص، كل هذا يذهب في أعوام قصار لا تكاد تبلغ عدد أصابع اليد الواحدة، كأن شيئاً من هذا لم يكن، وكأن نفساً لم تتأثر بما أثارته الحياة في هذه الأرض من العواطف، وكأن شفة لم تبتسم لما أنبتته هذه الأرض من مناظر الجمال، وكأن عيناً لم تبك لما شهدته هذه الأرض من أسباب الحزن والأسى. يا للحزن اللاذع، ويا للألم الممض، ويا لليأس المهلك للنفوس! لقد ماتت قناتنا أيها الصديق، ماتت ودفن فيها أو صرف عنها ذلك الإله الشاب من آلهة الأساطير الذي كان ينطلق فيها فرحاً مرحاً هادئاً وادعاً مستبشراً يرسل البشر من حوله جميلاً يثير الجمال على جانبيه. مات هذا الإله الشاب فدفن في مجراه، أو طرد هذا

الإله الشاب ورد عن مجراه وفني في الإبراهيمية. فأصبح ماء من الماء وجرى لا يتميز من غيره، لا يعرفه أحد ولا يعرف هو أحداً، لا يثير في نفوس الناس حزناً ولا فرحاً ولا يجري ألسنتهم بالحديث، نسيه الناس، ونسي هو الناس، بل نسي نفسه أيضاً. إنك لتعرف أن آلهة الأساطير لا حياة لهم إلا إذا أقيمت لهم المعابد وأقاموا هم في المعابد، فإذا هدمت مقابرهم فقد ماتوا أو طردوا من الأرض طرداً، فقد هدم معبد هذا الإله الشاب، وماتت القناة فمات هو أو نفي من الأرض طرداً، وأصبح حديثاً كغيره من الآلهة الذين أصبحوا أحاديث. أتدري أين أكتب إليك؟ إني أكتب إليك في مكان لم يتغير لأن الحضارة لم تدع إلى تغييره، ولم يتبدل لأن المنفعة لم تأمر بتبديله. ولأن يد الإنسان لا تكاد تجرأ على أن تمتد إليه. إني أكتب إليك عند المسجد، عند بابه البحري، أتذكر هذا الباب، هو الذي يدخل منه المترفون الذين لا يحتاجون إلى أن يمروا بالميضأة لأنهم يتوضأون في بيوتهم. ولا أن يمروا بالمغطس لأنهم يستحمون في بيوتهم، أتذكر هذا الباب؟ إنه ينتهي بك إلى فنائه ولا إلى الصحن المنبسط أمامه. أنك إذا دخلت منه لم تكد تخطو خطوات حتى تجد عن يمينك قبر ذلك الغني الذي بناه. أتذكر هذا الباب؟ إنك إذا أقبلت عليه وجدت مقعدين من الحجر يكتنفانه عن يمين وشمال، فأنا أكتب إليك عند هذا الباب وأكتب إليك قائماً لا قاعداً. وأكتب إليك وقد وضعت القرطاس على أحد هذين المقعدين المرتفعين وقمت أمامه أجري يدي بما تلقيه هذه النفس الحزينة على هذا القلم الشقي.

لقد أطلت ولكني لم أحدثك إلا بأيسر الحديث، لقد أطلت ولكني لم أحدثك عما رأيت، بل لم أحدثك عما لم أر. فإن ما رأيته لا يستحق الحديث، وإنما الذي يستحق الحديث هو هذه المعالم التي أقبلت زائراً لها. فلم أر منها عيناً ولا أثراً، وسألت عن بعضها فلم أجد بين الناس الذين سألتهم من يعرف لها نبأ أو يروي عنها خبراً. هذه المعالم التي جئت لأراها والتي لم أرها، هي التي تستحق الحديث. لن أرسل إليك هذا الكتاب حتى أتمه. ولن أتمه الآن. فقد آن لي أن أروح إلى قريتنا حيث ينتظرني الحزن والسخط والبؤس والشقاء.

نعم لن أرسل إليك هذا الكتاب حتى أتممه، فما ينبغي أن أحتمل وحدي ثقل هذا الحزن. وما أظن أن غيرك وغيري من الذين نشأوا في المدينة يحزنهم أن يعلموا بموت القناة أو بتغير ما ألفوا من المعالم أو يتفرق من ألفوا من الناس.

وأكتب إليك الآن من قريتنا وقد بلغتها مع الليل فألهاني ما شهدت فيها بعض الوقت عما كان يملأ نفسي من الحزن والحسرة، ولو أنك رأيت ما رأيت، لـلهوت كما لهوت، ولما استطعت أن تمنع نفسك من ضحك ينفذ إليه حزن غير قليل. فقد رأيت أهل الدار وقد ملكهم جزع غريب لم يحكموا فيه عقلاً ولا روية وإنما اندفعوا فيه اندفاعاً. افتقدوني وجه النهار فلم يجدوني وانتظروني حتى انتصف النهار، وهم يظنون أني قد خرجت لبعض ما يخرج له الشباب من النزهة والتماس التروض

والعبث في الحقول. ولكني لم أعد مع الظهر، ولم أعد مع العصر، فلم يشك أحد في أني لم أخرج لنزهة ولا لتروض وإنما فررت منهم فراراً، وعدت إلى القاهرة أنتظر فيها يوم الرحيل.

وتستطيع أن تصور لنفسك ما ملأ نفس الشيخين من هذا الحزن العنيف الذي يملؤه السخط والغضب. وتملؤه الرقة والرحمة في وقت واحد. لقد كنت ابناً عاقاً يرتحل دون أن يودع أبويه، فكنت خليقاً أن أثير السخط والغضب والموجدة، ولكني كنت ابناً يرتحل إلى بلد نازح، فكنت أثير الرحمة والحب والحنان، وكانت غريبة هذه الدموع التي كانت تنحدر من عيني أمي. لا يعرف الناس أهي دموع الغيظ والحنق أم هي دموع الوجد والحنين. وكانت غريبة هذه الألفاظ التي كانت تنطلق متصلة على لسان أبي، لا يعرف الناس أصدرت عن أب ينكر على ابنه عقوقه وجحوده وقسوة قلبه الغليظ، أم صدرت عن أب ينفطر قلبه حزناً لأن ابنه قد سافر إلى بلد مجهول، وهو لا يعرف متى يعود ولا كيف يعود.

ثم كانت غريبة هذه العواطف التي ثارت في نفسي حين بلغت الدار فرأيت الشيخين راضيين يظهران السخط، ومسرورين يتكلفان الحزن، ومبتهجين يتصنعان الاكتئاب. ففي قلبهما إذاً عطف عليّ. وهذا الغضب الذي أراه وأتأذى له ليس إلا مظهراً من مظاهر هذا العطف، ولوناً من ألوان هذا الحب، وصورة من ظهور هذا الحنان. وإذاً فسأسافر إلى هذا البلد الغريب وأنا واثق بأن الذي سيصحبني في هذا السفر هو الحب والعطف والحنان لا

السخط والغضب والموجدة. ولعل خروجي إلى المدينة لم يكن شراً كله وانما كان فيه بعض الخير، على كثرة ما أثار في نفسي من الآلام الملحة الباقية، فلأول مرة عدت إلى القرية استطعت أن أظفر من أبوي بساعات فيها هدوء وطمأنينة وحديث متصل مختلف، كأن عودتي إليهما من الرحلة القصيرة التي انقضت قد ألهتهما عن تلك الرحلة الطويلة التي لم تبتدئ بعد. وكان أكثر حديثنا عن المدينة التي زرتها، وعما تغير من معالمها ومن تفرق من أهلها. وكان الشيخان يتحدثان إلي في ذلك كله حديثاً هادئاً مطمئناً يغشاه حزن خفيف وتتردد فيه ذكريات مؤثرة، ولكن قوامه الرضى بما كان والسخط على ما هو كائن والأمل في ما سيكون. وكانت أحاديثهما متممة لما رأيت وما علمت، ومتممة في الوقت نفسه لتشييد هذا المعبد الحزين الذي أقمته في نفسي لهذه الحياة المنقضية ولهذه العهود الماضية ولهذه الذكريات التي ستبقى ما بقيت.

نعم كانت أحاديثهما متممة لتشييد هذا المعبد الحزين الذي أقمته في نفسي والذي يجب أن تقيم مثله في نفسك لذلك العهد الذي مضى إلى غير رجعة ومات إلى غير نشور. ولا بد من أن أتمم لك ما تم في نفسي من تشييد هذا البناء المظلم الحزين الذي ستتردد فيه الذكريات حائرة مضطربة كما تتردد هذه الطير التي تألف الظلمة في البيت المظلم الحزين.

وماذا تريد أن أقص عليك من أمر المدينة؟ لم يبق فيها

شيء مما كنت تعرفه وتألفه، ماتت القناة فمات من حولها كل شيء. فأما حديقة المعلم فتستطيع أن تلتمسها في نفسك واجتهد إن اسطعت أن تستحضر ما بقي من صورتها وأن تثبته، فإني أخشى أن يعبث الزمان بالصورة كما عبث بالأصل. وأما بيتكم فلن تراه إلا في الخيال يقظان أو في الحلم نائماً. وكذلك هذه البيوت الحسان التي كانت تقوم على شاطئ القناة والتي كنت تحب أن تدخل بعضها لتتحدث إلى محمود عثمان. ولتسمع لعزيزة وأمينة. وقد مضى أهلك إلى أقصى الصعيد، وهبط أهل عزيزة وأمينة إلى القاهرة. فتستطيع أن تلقاهما إن شئت، فقد كنا نسمع أنهم كانوا يقيمون في بولاق قبل أن ينقلهم العمل إلى مدينتنا.

وأنت تعلم من غير شك أن عم «حسنين» قد انتقل إلى السودان بعد أن عصف الموت بيته فأذوى منه غصوناً وأذبل زهرات. ولكنك تجهل أن «حسن كوزو» قد رحل إلى عزبة «المكسرين» وأنت لا تعرف عزبة «المكسرين»، فهي قطعة من الأرض منحتها الحكومة لعمال الدائرة السنية الذين عجزوا عن العمل. فهم يقضون فيها ما بقي لهم من حياة.

فأما سيدنا فقد ارتحل إلى حيث لا يؤوب المرتحلون وسبقته حماته الشمطاء ذات اللسان الحاد الذي لم يكن يعرف السكون. واستأنفت زوجته الشابة حياتها سعيدة مع ذلك الذي كان يدور حول بيتها كما كان يدور الأحوص حول بيت أم جعفر. وفقدت عالية أم غريب زوجها الضرير ثم انتقلت مع أبنائها إلى حيث لا

يعلم أحد. وطارت أم محمود مع عوى من أهل المدينة، ذهب بها إلى حيث لا ينكر الناس عليه غوايته. ولقيت زنوبة من دهرها شراً ونكراً. فخانها زوجها جهرة بعد أن كان يخونها سراً، وآثر عليها بنت أخيها الفتاة. ثم مضى الدهر في تنكره لها ومكره بها ففقدت بصرها، وعاشت أعواماً لا ترى النور، ثم رأفت بها الأيام فأخرجتها من هذا العالم الذي لا يكمل الصفو فيه.

أتريد أن تعلم أكثر مما علمت وأن تحزن أكثر مما حزنت؟ فقد هدم الكتّاب هدماً، وذهب ما كان حوله من الأشياء ومن كان حوله من الناس.

نعم هدم الكتّاب هدماً، وما أعرف أن شيئاً مما رأيت أو شيئاً مما لم أر، ترك في نفسي من الآثار المؤلمة والندوب التي ستبقى ما بقيت مثل ما تركه فيها منظر الكتاب المتهدم. فما تزال معالم الكتّاب باقية، على نحو ما كانت تبقى معالم الديار لقدماء الشعراء. فالكتّاب الآن ظل تمحوه الأيام شيئاً فشيئاً وتبقى من آثاره إلى الآن بقية مؤذية حقاً. لقد ماتت القناة عن شماله وسويت الطريق عن يمينه، ونزع منها ذلك الخط الحديدي الضئيل الذي كانت تمضي عليه تلك القطارات الزراعية الصغيرة تحمل القصب إلى معمل السكر أثناء العمل وتحمل التراب والحصى إذا كان الفيضان لردم هذا المستنقع العظيم الذي كان يؤذي المدينة في كل عام.

نزع هذا الخط وسويت هذه الطريق وقلّت الحركة عن يمين

الكتّاب وشماله. وعملت معاول الهدم في الكتّاب نفسه وفي ما كان يجاوره ويوازيه من البناء حول دار المأمور. فالمنظرة التي كانت أمام الكتّاب والتي كان ينزل فيها أضياف المأمور قد هدمت كما هدم الكتاب، وأصبحت طللاً مثله. والبيت الذي كان يقوم وراء الكتّاب وتعيش فيه أسرة عم نوح قد هدم كما هدم الكتّاب، وانتثرت هذه الأطلال في هذا الفضاء انتثاراً محزناً موئساً. ولكن مكان الكتاب بينها يثير في النفوس أسى غريباً ولوعة محرقة حقاً. إن أرضه ما زالت مرصوفة بهذه الأحجار التي كان يغسلها التلاميذ مساء الأربعاء من كل أسبوع بعد أن يقرأوا الحزب، وإن عتبته ما زالت قائمة ولم تمح جدرانه كلها محواً؛ وإنما بقي منها شيء يرتفع هنا وينخفض هناك، وتستطيع أن تتبين مواضع المقاعد الخشبية التي كانت مسندة إلى هذه الجدران والتي كان يجلس يدنا على أحدها عن يمينك إذا دخلت ويجلس العريف على أحدها الآخر عن شمالك إذا دخلت، ويجلس المترفون من التلاميذ على سائرها ثم يختلط بينها الفقراء وأبناء الشعب، على حصر ممزقة تستر بعض الأرض وتبين عن بعضها الآخر، ولا تكاد تجدد إلا حين تستحيل إلى قش لا يكاد يتصل، وحين يجود بعض الأغنياء بما يقوم مقامها.

قل ما شئت واعجب بالشعر ما أحببت واحفظ من وقوف الشعراء على الأطلال وبكائهم على الديار وذكرهم للطاعنين ما استطعت أن تحفظ، فسيظل هذا كله في نفسك كلاماً أجوف لا يحتوي شيئاً ولا يدل على شيء، حتى تقف موقفاً كالذي وقفته

منذ حين بين هذه الأطلال عن يمين وشمال، وحتى تذكر ما ذكرت من هذه الحياة القوية الغنية الخصبة التي كانت ملؤها الحركة والنشاط، وتضطرب فيها الأماني والآمال، وتختصر جيلاً مضى وتنبئ عن جيل مقبل، فذهبت هباء وتفرقت في الأرض، ولم يبق منها في هذا المكان إلا صدى لا يحسه الناس جميعاً، ولا يقدرون وجوده، وإنما يحسه مثلك ومثلي من الذين اشتركوا في هذه الحياة وتأثروا بها وملأوا من صورها النفوس والقولب. لقد وقفت على الكتّاب وقفة طويلة وجعلت أنظر حولي فلا أرى إلا هذه الأحجار المتناثرة وأمد أذني فلا أسمع إلا هذا الصدى الذي كان يضطرب في الفضاء، ولكني مع ذلك كنت أرى رفاقنا جميعاً، وقد أخذوا مجالسهم في الكتاب، هذا يقرأ..هذا يسمع، وهذا يلغو، وهذا يكتب، وهذا يلعب، وكنت أحلل هذا الصدى المتردد فأجد فيه هذا اللغط الذي كان يُسمع من مكان بعيد فيدلّ سامعه على مكان الكتاب، ولولا أني ما زالت محتفظاً ببقية إرادة، وفضل من القدرة على ضبط النفس لجننت ولتحدثت إلى هؤلاء الأشخاص الذين كنت أراهم يجرون ويلعبون، ولشاركتهم في الجري واللعب. لا أخفي عليك أني ملكت نفسي فلم يذهب بها الجنون، ولكني لم أملك عيني، ففاضت منهما الدموع. هممت أن أمضي ولكني لم أسلك الطريق العامة حيث كان يمتد الخط الحديدي، وإنما هممت أن أمضي نحو بيت المأمور. فما راعني إلا النخلتان اللتان كانتا تقومان بين الكتاب وبيت نوح، وإذا هما قائمتان كعهدهما تبسطان ما كانتا تبسطانه من الظل، وتحملان

ما تعودنا حمله من التمر الذي لم يتم نضجه بعد وتلقيان ما كانتا تلقيان من بعض هذا التمر الذي كنا نلتقطه فنعبث به، ثم كنا نلتقطه فنأكله إذا قارب النضج، ثم كنا نزدحم عليه ونتنافس فيه إذا تم نضجه، وما زالت النخلتان قائمتين بين هذه الأطلال المتهدمة ولكنهما قد فقدتا ما كانتا تبعثان من بهجة، وظهرت عليهما كآبة عميقة حزينة مثيرة لليأس كأنهما تجدان الوحشة في هذا المكان الذي خلا بعد عمران، ومات بعد حياة.

لقد وقفت عند هاتين النخلتين لحظة ما أعرف أني قضيت مثلها، ولقد ذقت في هذه اللحظة من لذة الذكرى وألم الحسرة ما لا أعرف أني ذقت مثله قط. وإني لأذكر الآن هاتين النخلتين فأمنحهما حباً ومودّة وأهزأ بهذا الامتحان الذي أخضعكم له ذات يوم أستاذ من أساتذتكم في الجامعة حين ذكر حلوان ثم استطرد إلى نخلتي حلوان ثم كلفكم أن تبحثوا عن هاتين النخلتين أين كانتا وماذا قيل فيهما من الشعر ومن ذا تغنى بهما من الشعراء!. لقد أجهدت نفسك في البحث، ولقد كنت تعجب بشعر مطيع في هاتين النخلتين. ولقد كتبت كلاماً كثيراً عما عرفت من أمر هاتين النخلتين، ولقد كنت راضياً عن نفسك لأن الأستاذ كان راضياً عنك، ولكن ماذا تركت نخلتا مطيع في نفسك من أثر، وماذا بعثتا في قلبك من عاطفة؟ إنما هو كلام يروي ثم يثير في أنفسكم العجب والتيه والغرور أكثر مما يثير فيها الشعور الصادق بالجمال الصادق. أسرع أيها الصديق إلى مدينتنا فالمم بها يوماً أو بعض يوم قبل أن تمحى معالم الكتاب

محواً، وقبل أن تُجتث النخلتان اجتثاثاً، وقبل أن تتم الحضارة عماراتها الشاهقة، على هذه القبور العزيزة التي دفنا فيها الصبى، وما كان يملؤه من الفرح والمرح ومن الحياة والنشاط. أسرع إلى النخلتين فاجلس إليهما واستظل بظلهما ثم أنشد شعر مطيع، فستفهمه وستتذوقه وستشعر بما يصوّر من الحزن كما شعر به مطيع نفسه.

ليت الأيام تتيح لي أن أحقق أمنية تضطرب في نفسي فأجمع نفراً من رفاقنا ونقصد إلى الكتاب وإلى ما حوله من الأطلال، وإلى النخلتين فننظر ونسمع ونجلس ونتحدث ونحيي عهدنا القديم ساعة أو بعض ساعة.

لست أدري أتقرأ هذا الكتاب الطويل أم تضيق به، وتشفق من طوله، وتكره أن تنفق في قراءته من وقتك ما أنت في حاجة إليه، لتستعد لدرس من الدروس، أو لتقرأ في كتاب من الكتب، أو لتحفظ من بعض الدواوين، ولكني لم أكن أستسيغ أن أكتب إليك أقصر مما كتبت، ولولا إشفاقي عليك ورثائي لك لكتبت إليك أطول مما كتبت، فقد تقدم الليل حتى تجاوز نصفه، فكل شيء ساكن من حولي إلا هذه الأصوات التي تبلغني من حين إلى حين، أصوات الحفراء حين يتنادون أو أصوات الديكة، فتحسب أن الفجر قد لاح، فتصدح بندائها العذب لتلقاه بالتحية ولتنبئ الناس بمطلعه، ثم تعلم بعد ذلك أنها قد خدعت، أو هي لا تعلم شيئاً وإنما يمضي بها النوم في أمواجه المتصلة المتلاطمة فتعود

إلى الصمت وتغرق فيه. ولعلي أجرد نفسي من خواطرها، وأسلها مما حولها سلا، وأعلقها في هذا السكون تعليقاً، فأسمع أصداء تتردد ويدعو بعضها بعضاً ويجيب بعضها بعضاً، وتصور لي ذلك الصدى الذي كنت أسمعه في الكتاب ثم أريد أن أحلل هذه الأصداء وأردها إلى أصولها، وأتخذ لها أشخاصاً أحياء، فيخيل إلي أنها نفوس الأجيال التي سكنت قريتنا على اتصال الزمن، ويخيل إلي أن أجسام الناس والحيوان والأشياء هي وحدها التي تزول، وهي وحدها التي تتغير، وهي وحدها التي تبرح الأرض. فأما نفوس الناس والحيوان والأشياء فمتصلة بالأرض لا تبرحها، مضطربة في الجو لا تفارقه ولا تزول عنه، وإنما هي تملؤه حياة لا يشعر بها الأحياء إلا إذا سلوا أنفسهم من المادة سلا، وعلقوها في سكون الليل تعليقاً. لقد تقدم الليل حتى جاوز نصفه وكاد يبلغ ثلثيه، ولقد سكن من حولي كل شيء، وأنا لا أسمع دعوة النوم ولا أحس مقدمه، ولا أرغب فيه، وأنما أنا حريص كل الحرص على أن أبقى مع هذه الذكريات أتحدث إليها، وأسمع منها حين أتخذها موضوعاً لما أحمّل هذا الكتاب إليك من حديث، وما أظن أن الفجر سيلقاني نائماً بل أنا واثق بأنه سيلقاني يقظاناً، ولولا أن يراع أهل الدار وأن تُظنَّ بي الظنون لخرجت لاستقباله في الفضاء، فأنا أكره أن يدخل عليَّ نوره من النافذة، كأنه اللص، وأحب أن ألقاه في الفضاء الطلق، فأملأ به نفسي وقلبي، وألتمس في ضوئه الهادئ الحلو هدوءاً لهذه الثورة التي لا أستطيع أن أكبح جماحها، ولا أن أنتهي بها إلى السكون.

يا للحزن ويا للأسى! يا للوعة ويا للحسرة؛ ويا لليأس.يا للقنوط!
لقد أقبلت على الريق وكنت أظن أني سأملأ عيني وأذني ونفسي وقلبي بما أحببت وبما ألفت. وأني سأحمل هذا كله إلى حيث أريد أن أقيم وراء البحر. فلم أجد شيئاً وهأنذا سأعود إليك بعد أيام. ثم أرحل إلى مصر بعد أسابيع لا أحمل في نفسي إلا أطلالاً متهدمة. ونخلتين قائمتين صامتتين تجدان الوحشة، وتبعثانها من حولهما. ما أكثر ما كنت أريد وما أقل ما وجدت وما أكثر ما يعبث بنا من الآمال.

تقبل تحية صديقك اليائس».

وأنا أعترف أني تلقيت هذا الذي هو أشبه بالسفر منه بالرسالة في شيء من الخوف والإشفاق من طوله. ولكني تعودت من صديقي طول الحديث واختلافه وكثرة الافتتان فيه. فأبقيته يوماً كاملاً لم أقرأه. ولم أعرف ما فيه حتى فرغت له آخر النهار فقرأته. ولكني لم أحس له من الأثر مثل ما أحسست له حين أعدت قراءته في هذه الأيام. وكأن الأمد بين صديقي وبيني كان بعيداً أشد البعد. فقد كنت أقدر الذكرى وآنس إليها وأحب التحدث عن العهود القديمة. ولكني لم أكن أكلف بهذه العهود ولا أحفل ولا آسى عليها.

ولعلي كنت مدفوعاً إلى أن أسخر منها سخراً غير قليل. فقد كنت مفتوناً بحياتي في القاهرة راضياً عما كنت أتلقاه كل يوم من جديد الأمر. مبتهجاً بما كانت تتفتح له نفسي كل ساعة من

العلم. وكان هذا النشاط العقلي يبهرني. ويسحرني ويدفعني إلى طور من أطوار الحياة يشبه أن يكون سكراً متصلاً. وكان تذكر العهود القديمة يؤذيني لأنه يخرجني من هذ الحياة اللذيذة بعض الشيء، ويردني إلى تلك الحياة التي طالما ضقت بها أيام كنت صبياً ناشئاً في الريف. فلم أحفل بالقناة ولا بموتها، ولم أحفل بالخط الحديدي ولا بانتزاعه، ولم أكثرت للكتاب ولم أعرف للنخلتين خطراً. وما قيمة الكتّاب وما قيمة النخلتين ولم يقل أحد في الكتاب ولا في النخلتين شعراً، ولم يتحدث كتاب قديم عن الكتّاب ولا عن النخلتين ولا عن القناة ولا عن الخط الحديدي، ولا عن معمل السكر. والله عز وجل قادر على أن يغفر لي الخطيئة ويعفو لي عن الذنب، ويتجاوز لي عن السيئة، فقد لقيت ما أنبأني به صديقي من موت سيدنا بشيء من الابتسام وهز الكتفين. أما الآن فأراني مع صديقي متلمساً أصل القناة باحثاً عما ألفنا من الأحياء والأشياء، حزيناً ملتاعاً بل يائساً قانطاً، أما الآن فإني أقرأ هذا الكتاب فأسأل نفسي: أين ذهب الكتاب والنخلتان؟ وماذا قام في ذلك المكان، الذي قضينا فيه شطراً من حياتنا لعله خير ما أتيح لنا أن نحيا.

يونيو في...

لم يؤوني البيت منذ فارقتك ظهر أمس يا حميدتي العزيزة. ومع ذلك فقد قضيت فيه وقتي كله منذ انصرف بك القطار عن القاهرة إلى هذا الوقت الذي أكتب إليك فيه وقد كاد يرتفع

الضحى. ذلك أن في نفسي صورة لا تريد ولا أريد أنا أن تفارقني، وهي صورتك قبل الرحيل وقد انتحيت ناحية من غرفتنا ووقفت واجمة لا تنطقين. ثم لم أكد أقبل عليك وأدعو باسمك حتى رفعت إلى عيناً مثقلة لا تريد أن ترتفع، ثم انهمرت دموعك انهماراًصامتاً لا يتبعه ما يتبع دموع النساء عادة من زفير وشهيق. وقد نظرت إليك وأنت في هذه الحال ساعة لم أقل لك شيئاً ولم أقل لنفسي شيئاً، وإنما وجمت كما كنت واجمة، ثم انهمرت دموعي كما انهمرت دموعك، ثم قام كل منا في مكانه لحظات لا أدري أكانت طوالاً أم قصاراً، ولكنها كانت لحظات صمت عميق يغمره دمع غزير. ثم سعيت إليك في رفق فضممتك إليّ وطوقتك بذراعي، فلم تقولي شيئاً وإنما أسندت رأسك إلى كتفي وظل دمعك ينهمر سخيناً غزيراً، ثم أخذت رأسك بين يدي، ولثمت عينيك كأنما أريد أن أشرب دمعك شرباً، ثم قبلت جبهتك وخديك، ثم ضممتك إلي مرة أخرى فقبلتني ثم افترقنا ومضى كل منا في الاستعداد للرحيل.

لم تفارقني هذه الصورة أو هذه الصور ولا أريد أن تفارقني؛ فما زلت منذ أمس أنظر إليك واجمة وأرى دموعك تنهمر ثم أراك بين ذراعي تذرفين دموعك على كتفي، ثم أراني أقبلك وأراك تقبلينني، ثم أراك تسعين في الغرفة ذاهبة جائية تهيئين متاعك في صمت متصل لا يقطعه شيء حتى ولا زفرة من الزفرات. ولقد اضطربت المدينة في بقية النهار وشطراً من الليل

ولقيت كثيراً من الناس فتحدثت إليهم وسمعت منهم، وخيّل إليّ أنهم يفهمونني وخيل إليّ أني أفهمهم، وخيل إليهم في أكبر الظن أني كنت كما تعودوا أن يروني دائماً ثرثاراً ساخراً متصل العبث والمزاح، ولكن الله يشهد ما خلصت لواحد منهم لا خلص لي واحد منهم، وإنما كنت أمنحهم بعض نفسي أو كنت أمنحهم أيسر ما يستطع الرجل أن يمنح من نفسه. وكنت أرى أن هذا يكفي لأفهم عنهم وليفهموا عني، وكانت خلاصة نفسي مملوءة بك منصرفة إليّ تملؤها هذه الصورة وتمتزج بها امتزاجاً حتى لكأنها هي ولست أدري: أتعرفين أني كثير التفكير والتحليل، وأني لا أحس شيئاً ولا أجده إلا فكرت فيه وحاولت تحليله وتعليله! ولكن كيف تعرفين ذلك أو تقدرينه ولم يكن بينك وبيني إلا أيسر ما يكون من الصلات بين الأزواج؟ فأنت لا تعرفين من أمري إلا أقله وأيسره، وأنا لا يفوتني من أمرك إلا أقله وأيسره. لست أدري، أتعرفين أني كثير التفكير والتحليل؟ ولكن حين رأيت إلحاح هذه الصور عليّ ولزومها لنفسي وامتلاكها لقلبي وامتلاء خواطري بها، وأحسست ما كان بينها وبين نفسي من الامتزاج، أخذت أفكر في ما يقوله بعض الناس من أصحاب التصوف حين يتحدثون عن امتزاج الظرف بالمظروف والعقل بالمعقول والفكر بموضوع التفكير. ولكن في ما أتحدث إليك يا حميدة البائسة: إني لأقص عليك سخفاً لا يغني ولا يستطيع أن يبلغ سمعك ولا أن يستقر فيه ولا أن يتجاوز إلى قلبك الحزين. وما أنت وما هذا الكلام! وما أنا والتحدث به إليك! وإنما أريد أن أرسل إليك كتاباً كله حب وكله برّ وكله حنان. فأين

هذا مما أخذت أهذي به وأخوض فيه!. أفكُتب علينا ألا تلتقي نفسانا فيطول بينهما اللقاء؟ أفكُتب علينا ألا يكون بيننا هذا الامتزاج الحلو الذي لا يخفى معه من أحدنا شيء على صاحبه لا من حسه حين يحس، ولا من شعوره حين يشعر، ولا من تفكيره حين يفكر؟! أفكُتب علينا أن تلتقي أجسامنا وألا تلتقي نفوسنا إلا لحظات قصاراً في نظرات قصار سراع كأنما نختلسها اختلاساً!؟ ولكن أتفهمين عني ما أقول؟ أتحسين ما أحس؟ أتجدين ما أجد؟ إني لم أتعود أن أتحدث إليك مثل هذا الحديث، وإنما تعودت ألا أتحدث إليك إلا قليلاً، وألا أتحدث إليك إلا في أيسر الأشياء وأدناها إلى السخف وأشدها اتصالاً بشؤون حياتنا المادية مما يمس شؤون البيت. ما أذكر أني تحدثت إليك في الحب، وما أعلم أنك تحدثت إليّ فيه. كنت أرى أنك لن تفهمي عني إذا تحدثت إليك بما أجد. وكأن الحياء يمنعك من أن تتحدثي إليّ ببعض ما تجدين. وكنا نكتفي بالنظرات الحلوة القصيرة يلمؤها الحنان. وكنا نكتفي بحلاوة الصوت ولين الألفاظ وعذوبة النبرات حين نتحدث في أي شأن من الشؤون ليشعر كل منا بما يجد من الحب والعطف ومن الحنو والإخلاص. وكانت حياتنا على هذا النحو صريحة واضحة في شؤونها المادية. وكانت رمزاً أو شيئاً أشد غموضاً من الرمز في ما يمس شؤون القلب والنفس والضمير. ولعلنا لم نشعر قط بأن لنا شيئاً من حياة القلب والنفس والضمير؛ فلم نفكر قط في تحليل ما بيننا من صلة أو في تأويله وتعليله. ومتى كنا

نستطيع أن نفكر في ذلك وقد كنت مشغولاً عنك بالعمل والكتاب. وكنت مشغولة عني بالبيت. وكنا لا نلتقي إلا لنتحدث في ما يتحدث فيه الأزواج من الأمور غير ذات الخطر التي لا تمس قلباً ولا نفساً ولا ضميراً. ماذا أقول! وإلى من أكتب؟ وإلى من أسوق هذا الحديث؟ أترين أنك تفهمين عني هذا الكلام؟ ما أظن! فكيف تفهمينه وأنت تسمعينه لأول مرة! ومع ذلك فإني شديد الحاجة إلى أن أتحدث إليك كما تعودت أن أتحدث إلى نفسي بهذا الأسلوب المسير الدقيق، وعلى هذا النحو الذي لا ينقصه الموج ولا الالتواء.

ومع ذلك فقد كان يسيراً كل اليسر، هذا المعنى الذي أردت أن أتحدث به إليك حين بدأت هذا الكتاب؛ فقد كنت أريد أن أنبئك بأني لم أستطع أن أستقر في بيتنا بعد فراقك؛ لأني وجدت فيه وحشة نفتني عنه وجعلت مقامي فيه مستحيلاً، فهمت في المدينة وتلمست السلوة عند الأصدقاء بقية النهار وطول الليل. ولم أستطع مع هذا أن أنسى البيت أو أنسى غرفتنا فيه أو أنسى صورتك في هذه الغرفة طول هذا الوقت رغم الاضطراب في الأرض والاختلاف إلى الأندية والاتصال بالأصدقاء.

هذا ما كنت أريد أن أتحدث به إليك حين أخذت أسطر هذا الكتاب؛ فهو يسير سهل كما ترين، ولكني مع ذلك لم أكد آخذ فيه حتى تعقد والتوى بي أو التوى عليّ، ودفعني إلى أنحاء من التفكير ومذاهب من القول بعدت بي عن الغاية ولم أخلص

منها، ولم أعد إلى ما كنت أريد إلا بعد مشقة وعناء. وكذلك أنا في حياتي الشاعرة مضطرب ملتوٍ كثير الاستطراد. لا أفكر في شيء إلا أثار لي أشياء، ولا آخذ في مذهب إلا التوى بي إلى مذهب تشق شقاً من نواحيه؛ فأنا أيامن مرة وأياسر أخرى، وربما نسيت الطريق التي أخذت فيها أول الأمر. ومضيت في الاستطراد إلى غير أمد.

وكذلك أنا في حياتي العملية لا آتي أمراً إلا أثار لي أموراً وفتح لي أبواباً من النشاط مختلفة الجهات باباً باباً. ولعلي ألج واحداً منها فلا أخرج منه، وإنما تفتح لي أبواب أخرى. فأنا مضطرب حين أفكر، وأنا مضطرب حين أعمل، وأنا مضطرب حين أقول. والغريب أني أستطيع مع هذا الاضطراب كله أن أعرف لحياتي وحدة، وأن أتبين لها طريقاً متشابهة تنتهي أو تريد أن تنتهي إلى غاية متقاربة. ماذا أقول! هأنذا قد بعدت عنك وعما أكتب إليك من أجله، وفرغت لنفسي أو شغلت بها؛ فأنا أدرسها وأسرف في درسها وتحليلها، وإن كنت أعلم أن لدي من الوقت ما يكفي للنظر في المرآة ولأرى هذه النفس التي أحب وأكره أن أراها. وليس لديّ من الوقت ما يسمح لي بالتحدث إليك في ما أريد إلا القليل. ومن يدري! لعل نفسي غير الشاعرة التي تجور بي عن القصد وتنحرف بي عن الطريق المستقيمة لأنها تشفق من المضي إلى الغاية التي من أجلها أكتب، تشفق عليك وتشفق عليّ أيضاً. فإن الأمر الذي أريد أن أتحدث إليك فيه ثقيل خطير، ما أحسب أنك تقوين على استماع حديثني فيه،

وما أشك في أني محتاج إلى شيء كثير جداً من الشجاعة والجلَد لأمضي في هذا الحديث. وكذلك ترفق نفسي غير الشاعرة بنفسي الشاعرة، وتحميها من بعض ما تكره، وتريد أن تؤخر عنها العذاب. فما أشد سلطان الأثرة علينا! وما أشد استئثار الضعف بنفوسنا وما أشد امتلاك الخوف لقلوبنا، ولا سيما حين نزعم أننا أقوياء، وحين نريد أن نظهر الناس على أننا أقوياء! ولولا ذلك لما تكلفت هذا الكلام الطويل، ولما دفعت إلى هذا القول الملتوي حين أحاول أن أنبئك بنبأ مهما يكن ثقيلاً خطيراً فهو واضح لا غموض فيه، ولكن أستحي منك وأستحي من نفسي وأشفق من الصراحة فأتقيها بالفلسفة والتواء الكلام. فلأتشجع إذاً ولتتشجعي أنت أيضاً، ولأقل إذاً ولتسمعي أنت ما أريد أن أقول! إن القلم ليضطرب في يدي، وإن يدي لتجمد فلا تكاد تتحرك، وإني لمحتاج إلى أن أكف عن الكتابة حيناً لأسترد القوة والجرأة والنشاط. وهأنذا أستأنف الكتابة وأدافع عن نفسي دفاعاً شديداً لأحول بينها وبين الاستطراد، ولأُكرهها على المضي في ما تلتمس الفراغ منه، ولأحملها على أن تقسو عليك وعليّ فتلقي إليك بهذا النبأ وهو أننا لن نلتقي بعد اليوم.

أف! لقد ألقيت العبء، وتخففت من الثقل، واستطعت أن أتنفس في غير حرج ولا ضيق، وأحسست كأني أصبحت طليقاً حراً وقد كنت مقيداً مغلولاً؛ لا لشيء إلا لأني ألقيت إليك هذا النبأ بعد أن كنت أتحرج من إلقائه. وأصبحت ملزماً أن أعلله لك وأن أفسره وأن أرد عن نفسي ما سيثور في قلبك من

الشبهات. وأنا أعلم أنك لن تصدقيني ولن تؤمني لي ولن تقبلي شيئاً مما أقول. ولكني أقسم مع ذلك ما طلقتك عن قلي ولا فارقتك عن زهد فيك أو رغبة عنك أو نفور منك. وإني أقسم ما أحببتك قط كما أحبك الآن. وما آثرتك قط كما أوثرك الآن، وما عرفت سلطانك علي ويدك عندي كما عرفتهما الآن. بل أقسم إني لأحس كأنما أشطر قلبي شطرين، فأحفظ شطره في صدري وأرسل بشطره الآخر إلى مكان بعيد في أعماق الريف حيث لا يتاح لي أن ألقاه. بل أقسم ما طلقتك إلا حباً فيك وإيثاراً لك وضناً بك على ما أكره. ولأكن صادقاً كل الصدق: فإن الضعف والعجز والجور، كل هذه العيوب هي التي تدفعني إلى أن أفارقك أشد ما أكون لك حباً وأعظم ما أكون لك حباً وأعظم ما أكون عليك حرصاً. لم أستطع أن أوثرك على أوروبا فأبقى معك، ولا أستطيع أن أطمئن إلى أني سأكون وفياً إذا عبرت البحر، فأحتفظ بما بيننا من صلة الزواج. ولست أريد هذا الوفاء الخلقي الذي يتصل بالنفس، فأنا واثق بأني قادر عليه، بل أنا واثق بأنه سيعذبني وسيكلفني آلاماً وأسقاماً. إنما أريد الوفاء الكامل الشامل الذي يملك النفس كلها والقلب كله والضمير كله والجسم أيضاً. أريد هذا الوفاء الذي لا يبيح شركة ولا توهماً للشركة ولا تفكيراً فيها. وأنا آسف أشد الأسف محزون أشد الحزن، لأني أعلم أني سأتعرض للفتنة إذا عبرت البحر، وأن بعض اللحظ سيمس قلبي، وأن بعض الجمال سيستهويني، وأن بعض الشر سيدفعني إلى شيء من الغي. وما أحب أن أعرض

حبك، استغفر الله، بل ما أحب أن أعرض زواجنا للإثم والفساد. لا أستطيع أن أخفي عليك ما قد أقترف من إثم: لأني لم أعوّدك ولم أعوّد نفسي الكذب. ولا أستطيع أن أعترف لك بما قد أقترف من إثم؛ لأني إن فعلت آذيتك في غير حق وفي غير جدوى، وعرضت ما بيننا للفساد. وأنا إن كذبت عليك أهنت نفسي بالكذب. وإن اعترفت لك أهنت نفسي بالاعتراف. وإذاً فمالي لا أستقبل الحياة شجاعاً جريئاً مستمتعاً بلذاتها محتملاً لتبعاتها!! كم كنت أريد أن أكون قوياً قادراً على أن أقاوم الشر وأعاف الإثم، وأحتفظ بقلبي طاهراً نقياً، وبجسمي عفيفاً نظيفاً، وأردهما إليك بعد العودة كما ارتحلت بهما عنك أول الرحيل، ولكني عاجز عن ذلك، أو عاجز عن الاطمئنان إلى ذلك. والغريب أن من الممكن أن أعبر بحر الغواية ولا أغوى، وأن أقضي أعوام الغواية نقياً طاهر القلب، وأن أكون قد شققت على نفسي بهذا الحرج وحملتها ما كنت أستطيع ألا أحمّلها. هذا ممكن ولعله أن يكون، ولكني لا أكتفي بالممكن ولا أطمئن إلى الظن، إنما أريد الثقة ولا سبيل إليها، وأطمع في اليقين ولا أمل فيه، ولهذا أتكلف ما أتكلف وأقدم على هذا الأمر العظيم.

أترين أنك فهمت عني؟ ما أظن! ومتى فهم العقلاء عن المجانين؟ أترين أنك صدقتني؟ ما أظن! ومتى صدق الناس مثل هذا الهذيان؟ يا للحزن ويا للأسى! لمن أكتب هذا الكتاب وإلى من أسوق هذا الحديث! إنك إن قرأته فلن تفهميه، وإن فهمته فلن تقبليه، فكيف وأنت لن تقرئيه؛ إني لغافل ذاهل، إلى لمدلّه

مجنون. لقد انسيت أنك لا تقرئين ولا تكتبين، فمن الذي سيقرأ عليك هذا الكتاب ويفسره لك من أهل الريف؟. كلا لن أتمه ولن أرسله إليك، ولن تعلمي من أمري إلا أني رجل قاس غليظ مسرف في كفر النعمة وجحود الجميل! متتبع للأهواء والشهوات، لا أتحرج من شيء ولا أعرف لجموح نفسي غاية تنتهي إليها أو حداً تقف عنده. سيسقط النبأ في أسرتنا كما تسقط الصاعقة، وسيلقونه إليك في عنف أو في لين، وستجزعين وتظهرين التجلد، وسيبكي قلبك وتتكلف عيناك الجمود. ثم ستمرُّ الأيام، وستحرصين على أن يصل إليك بعض أنبائي دون أن يُعرف منك هذا الحرص. ثم سيأتي الخاطبون. كلا! لا أريد أن أمضي إلى أبعد من هذا الحد في التفكير: فما أرى أني أقوى على هذا المضي. لقد أبطأ علي صاحبي وكلفني انتظاراً طويلاً. ليته يقبل فيخرجني من هذا العناء.

قرأ غلامي الأسود الصغير هذا الكتاب بعد أن انصرف عني صاحبي، فلم أكد أفرغ من قراءته حتى رثيت له، وسألت نفسي كيف يكون موقع هذا الكتاب من حميدة البائسة لو أنها استطاعت أن تقرأه وتظهر على ما فيه!

يوليو في....

لم تفارقني صورتها بعدُ أيها الصديق العزيز، ومع ذلك فقد مضت أيام وأيام منذ انصرف بها القطار إلى قريتها في الريف، وحدثت بعد ذلك أحداث واختلفت شؤون، فلقيت من لقيت

وتحدثت إلى من تحدثت إليه، وأقدمت من الأمر على اليسير والخطير. ثم كانت الرحلة وهبط بي القطار إلى البحر ومضت بي السفينة إلى ما وراء البحر، وهأنذا أكتب إليك في غرفة من غرفاتها. وشهد الله ما فارقتني صورتها أثناء هذا كله في يقظة ولا في نوم.

ولقد سألت نفسي منذ عهد بعيد عن خير ما يستطيع الصديق أن يتمناه للصديق. وسألت نفسي حين عرفتك فأحببتك، وحين فارقتك فجزعت لفراقك، عن خير ما أستطيع أن أتمناه لك، وعرضت على نفسي أجوبة مختلفة لهذا السؤال. كنت أطمئن إلى بعضها حيناً ثم أدعه، وكنت أنصرف عن بعضها الآخر حيناً ثم أعود إليه. ولكن الحياة نفسها قد أجابت على هذا السؤال جواباً ما أحسب أني سأتحول عنه. فخير ما أتمناه لك وخير ما أتمناه للصديق، وخير ما أتمناه للعدو إن طابت نفسي وأحببت للعدو خيراً، هو أن يجنبك الله أسباب الندم، ويعصمك من الاضطرار إليه والإيغال فيه. فلست أعرف ألماً أشد ولا حزناً ألذع ولا عذاباً أمض ولا شقاء مفسداً للحياة كهذا الذي يثيره الندم في نفس الرجل الذي يقدر من الأمر ما يأتي وما يدع.

وإني لأقول لك هذا عن علم، وأتحدث به إليك عن تجربة. وأي تجربة! تجربة وددت لو أني تحملت كل ما ذقت من الألم منذ عرفت الألم مرة واحدة ولم أدفع إليها. فيالها من منغص ماكر قادر يعرف كيف يلقاك جهرة فيقطع عليك كل أمل،

ويأخذ عليك كل طريق، ويردك إلى حزن مظلم متكاثف الظلمة لا منفذ للنور منه، فإذا ألح عليك بالهم والحزن وبالتنغيص المتصل والكدر المتقطع حتى انتهى بك أو كاد ينتهي بك إلى اليأس المهلك، جلا عنك غمراته، ونفس عن قلبك وعقلك بعض الشيء، وخيّل إليك أنك قد رُددت إلى الفضاء الواسع والهواء الطلق والضوء المشرق. ولكنك لا تكاد تذوق الراحة وتطمئن إلى بعض الأمن، حتى يمسك هذا الشيطان الخفي مسكاً رفيقاً ولكنه عنيف، ليّناً ولكنه يبلغ غاية القسوة. يَخِز نفسك بين حين وحين وخزاً يسيراً ضئيلاً خفيفاً لا يكاد يُحس، ولكنه يذكرك بمكانه، وينبهك إلى أن في هذا الهواء الطلق راحة لجسمك إن تنسمته مطمئناً فارغ البال. ولكن يجب عليك ألا تطمئن وألا يفرغ بالك؛ فهو هنا قريب وإن ظننته بعيداً، وإنه دانٍ منك كل الدنو وإن حسبته نائياً عنك كل النأي. فإن كنت في شك من ذلك فانظر واشعر وسل نفسك عن هذا الوخز الخفيف الذي تجده، ما هو أو من أين يأتيك؟ فستعلم أنه مسُّ هذا الشيطان وألم هذا الندم الذي إن رفّه عليك فإنه لم ينسك، ولا ينبغي له ولا ينبغي لك أن تظن أنه سينساك.

نعم! وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة في الحديث مع من يحسن معه الحديث، وفي التفكير في ما يحسن فيه التفكير، ولكنه كفيل أن ينغص عليك لذة الحديث والتفكير بوخزة من هذه الوخزات الرفيقة الضئيلة التي يمسك بها في ناحية من نفسك،

فإذا أنت تقطع الحديث فجأة وتنصرف عن التفكير فجأة، كأنما ذكرت شيئاً كنت تنساه.

نعم! وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة والمتاع في قراءة الكتاب القيّم الذي يغذي عقلك وحسك وشعورك بما شئت من علم وأدب وفن، والذي تود لو تفنى فيه فناء، وتمتزج به امتزاجاً، وتنسى لقراءته الزمان والمكان وما يشتمل عليه الزمان والمكان، ولكنه خليق أن يحول بينك وبين ما تريد من هذا، وأن يفسد ما تجد من لذة ومتاع بوخزة من هذه الوخزات التي يمس بها نفسك في ناحية من نواحيها، فإذا يدك تتحرك حركة آلية فتضع الكتاب، وإذا رأسك يتحرك حركة آلية فيرتفع إلى السماء، وإذا أنت واجم قد أُنسيت ما كنت فيه، واشتمل عليك ذهول غامض واضح معاً، فيه انصراف عن كل شيء. وفيه شعور بهذا الشيطان الذي يفسد عليك كل شيء. وقد يكون هذا الشيطان أخفى من ذلك مكراً وأدق حيلة، فهو لا يصرفك عن الكتاب ولا يلقيه من يدك ولا يحوّل عنه عينيك، ولكنه يسايرك في القراءة كأنه الرفيق، ويلقي أثناء ذلك كلمات وخواطر لا صلة بينها وبين ما تقرأ. فإذا هي تختلط بما تقرأ، وإذا هي تحول نفسك عما في الكتاب، وإذا أنت تقرأ بعينيك دون أن يصل شيء مما تقرأه إلى نفسك.

وقد يغلو هذا الشيطان في المكر بك والكيد لك، فلا يسايرك في القراءة، ولا يلقي في نفسك كلمات ولا خواطر، ولا

يصرفك عن الكتاب وإنما يصرف الكتاب عنك صرفاً. يثير بين الحروف والكلمات والسطور صوراً ومظاهر وألواناً من الخيال. تراها وأنت كاره لرؤيتها، وتحاول أن تخلص منها إلى هذه الحروف والكلمات والسطور فلا تجد إلى ذلك سبيلاً. فالكتاب بين يديك ولكنه بعيد عنك. والكلمات أمام عينيك ولكنها تفرّ منك. هي تفرُّ وأنت تطلبها، وهذا الشيطان يلقي بينها وبينك غباراً من هذه الصور والمظاهر والخيالات. وقد يزدريك هذا الشيطان فلا يتكلف في تعذيبك جهداً ولا عناء، وإنما يداعبك في رفق ويلاعبك في استهزاء. فأنت في حديثك أو في تفكيرك أو في قرءاتك، وإذا صورة ضئيلة يسيرة رقيقة تتراءى لك، فتمر بين نفسك وبين ما تريد أن تقول أو تفكر أو تقرأ، ثم لا تلبث أن تنجلي عنك في سرعة البرق الخاطف، فإذا أنت تعود إلى ما كنت تقول وما كنت تفكر وما كنت تقرأ، ثم ما تزال بك مقبلة مدبرة، وسانحة بارحة، وملمة منصرفة، حتى يجهدك الشيطان ولم يصبه الجهد. ويشق عليك ولم تدركه المشقة، ويوئسك من الحديث والتفكير والقراءة وهو جالس غير بعيد، ينظر إليك في احتقار وازدراء، وفي سخرية واستهزاء.

كل هذا وجدته أيها الصديق العزيز منذ مضى بها القطار إلى قريتها في الريف. ومازلت أجده الآن والسفينة تمضي بي إلى فرنسا متكلفة مع البحر فنوناً من السير. تجاهده جهاداً عنيفاً حين يهيج وتضطرب به أمواجه وتعصف به الريح، وتداعبه

دعابة حلوة حين يهدأ ويستقر ويعبث على سطحه النسيم. وكم منيت نفسي منذ أخذت أتهيأ لهذه الرحلة أن أجد هذه اللذات المتباينة التي يجدها المسافرون في ما يكون بين السفينة والبحر من جد وهزل، ومن خصام ووئام. ولكن هذا الشيطان قد حال بيني وبين ما كنت أتمنى من ذلك، فأفسده عليّ إفساداً ونغصه تنغيصاً. ولو أنه ألقى بيني وبين ما أريد من ذلك حجباً صفاقاً وأستاراً كثافاً لهان الأمر ولكان اليأس منه مريحاً، ولكنه يشرف بي على اللذة إشرافاً ويمعن بي فيها إمعاناً، ثم يقطع أسبابها قطعاً، ويصدني عنها أو يصدها عني أشد ما أكون كلفاً بها واندفاعاً إليها واستعداداً لاجتناء ما هيأت لي من ثمرات.

جنبك الله الندم أيها الصديق، وعصمك من أثقاله فإنها لا تحتمل، ومن آلامه فإنها لا تطاق.

ولست مع هذا كله مبغضاً لشيطان الندم، هذا الذي يعذبني، ولا منكراً عليه؛ فأنا أعطي الحق من نفسي وأقبل راضياً أو كارهاً ما ليس من قبوله بدّ. فأنا قد اقترفت الإثم، ولا بد من أن أحتمل أثقاله وأتجرع آلامه. والإثم عندى شجرة لا بد من أن تؤتي ثمرها إذا صادفت من الخصب ما يمكنها من النمو والإثمار. وإنما تصادف الخصب وأسباب النمو والإثمار حين تصادف نفساً كريمة حرة دقيقة الحس قوية الشعور. والندم عندي آية من آيات الكريم، وعلامة من علامات السمو، ومظهر من مظاهر الارتفاع عن الدنيات، ودليل من أدلة خصب النفس وجودة أصلها واستعدادها للخير وحسن البلاء فيه. وإني لأبغض

النفوس المجدبة التي لا تعرف ألماً ولا ندماً، والتي تموت فيها أشجار الآثام والخطايا، كما يموت النبات في الصحراء المحرقة المهلكة. وإني لأبغض هذه النفوس ذات الخصب السيء الرديء، التي تغرس فيها أشجار الخطيئة والإثم، فلا تموت ولا تجف أعوادها، وإنما تثمر خطايا وآثاما.

أترى أيها الصديق أني مغرور مسرف في الغرور! أتعزى عن الألم والندم بتزكية نفسي، وأكاد لا أكره ما أقترف من الآثام لأنه يشعرني بأني كريم النفس نبيل الطبع نقي الضمير؟ ولكن لا تنكر عليّ هذا الغرور، ولا تلمني في ما ألتمس لنفسي البائسة من ضروب التسلية وألوان العزاء. فلولا هذا الغرور لأهلكني ما أجد من الحزن، ولقضى عليّ ما أحس من الندم، ولدُفعت إلى اليأس المهلك دفعاً.

وإني لأعجب كيف انجلت عني غمرة الأمل وصُرفتُ صرفاً عن هذه الخيالات الحولة التي كنت أخلقها لنفسي خلقاً. وأستعين بها علي ما كنت مقدماً عليه من الطلاق حين كنت أتصور الحياة الجديدة في فرنسا، وما تدخر لي من لذات مختلفة لا تفنى. فأنا أحاول الآن أن أتصور هذا البلد الذي أنا مقبل عليه. فلا أرى إلا هذا البلد الذي أنا منصرف عنه.

أحاول أن أتمثل السربون فلا أرى إلا جامعتكم المصرية. وأحاول أن أتمثل رفاقي من الفرنسيين فلا أرى غيرك وغير أصحابك الشيوخ. ثم أحاول أن أتمثل جمال باريس فلا أرى إلا

القاهرة، وأحاول آخر الآمر أن أضلل نفسي وأعللها وأمنيها الأماني الآثمة. أحاول أن أتمثل المرأة الباريسية فلا أرى إلا حميدة قائمة أمامي كهيئتها يوم كانت تستعد للرحيل في بكاء متصل وصمت عميق.

مهما أفعل لأنظر إلى أمام فأنا مكره على أن أنظر إلى وراء. فلا تلمني إذاً حين أعجز عن أن أخرج من نفسي، وعن أن ألتمس العزاء إلا فيها؛ فأنا أتلهى بهذا الغرور عن هذه الأهوال المنكرة التي تأخذني من كل مكان وتسعى إليّ من كل صوب. ومالي لا آلم ولا أندم ولا أتجشم من ذلك أهوالاً وقد اقترفت إثماً عظيماً حقاً؛ لقد كنت أخافك أيها الصديق فلم أصوِّر لك من هذا الإثم: إثم الطلاق، إلا أيسره وأهونه. لم أصوِّر إلا ما فيه من ظلم البريء، والاعتداء على من لم يستحق الاعتداء، وقد لقيت منك مع ذلك لوماً شديداً وإنكاراً عنيفاً، ونبواً كاد يفسد ما بيننا من الود، فكيف لو صوَّرت لك حقيقة الإثم الذي اقترفته! وكيف لو كشفت لك عن وجهه الذي أخفيته عليك.

لقد أفلت منك أيها الصديق، ولقد بلغ الكتاب أجله، وقطعت الأسباب بين حميدة وبيني، وبعدت بي الدار، فلا أمل الآن في إصلاح ما فسد، ولا خوف الآن من أن تصدني عن الرحيل. الآن أستطيع أن أظهرك على نفسي كلها... والآن أستطيع أن أنبئك بإثمي كله، وأنا أعلم أنك ستحتقرني وستزدريني. وما يعنيني من ذلك وأنا أحتقر نفسي وأزدريها!! فلن يصرفني احتقارك إياي

وازدراؤك لي، ولن يصرفني احتقاري لنفسي وازدرائي إياها عن أن أتمثل هذا الإثم القبيح وأملأ به خلوتي، وأتغنى بآلامه في ما بيني وبين نفسي غناء قبيحاً منكراً بشعاً أكرهه أشد الكره ولكن أمعن فيه أشد الإمعان.

لن يصرفني ازدراؤك لي وازدرائي لنفسي عن هذا كله، وعن أن أسجل نغمات هذا الغناء البشع في هذا الكتاب الذي أرسله إليك.

لست ظالماً فحسب أيها الصديق، ولكني كافر للنعمة منكر للجميل. فلم تكن حميدة زوجه فحسب، ولكنها كانت منعمة عليّ منقذة لي.

رضيت بي بعد أن نبذني غيرها، ومنحتني ودّها وحبها بعد أن أعلن غيرها أني لست أهلاً لودّ ولا حب.

إن لهذا قصة لم أنسها ولن أنساها، لأنها مزقت نفسي تمزيقاً، وعذبت قلبي تعذيباً، وآذتني في أعز شيء عليّ وهو الغرور والاعتداد بالنفس.

لقد كان أبواي كغيرهما من أهل الريف يعدّانني لعروس غير حميدة. وكان أهل هذه العروس يعدُّون ابنتهم لي منذ نشأنا صبيّين. وكانت الفتاة ابنة عمي، ولم تكن جميلة ولا وسيمة، ولكنها على ذلك كانت محببة إلي أثيرة عندي، لكثرة ما سمعت منذ الطفولة من حديث الزواج.

ولكنك لم تر وجهي ولا شكلي أيها الصديق. وأكبر الظن أنك عرفت من صوتي أني قبيح الشكل دميم الوجه بعيد كل البعد عن أن أروق العذارى، وأرضي أهواء النساء. ولم أكن أرى ذلك في نفسي ولا أعترف به عليها. ومتى رأيت رجلاً قبيحاً دميماً يؤمن بأنه قبيح دميم! ولكن فهيمة كانت ترى ذلك وتتأذى به وتنفر منه أشد النفور. وكانت تكره أن يتحدث إليها أهلها وأترابها بأمر الزواج. ولكنها لم تكن تظهر الكره وتعلن الإنكار. حتى إذا جد الجد وتقدمت بها وبي السن، وأخذ أهلنا يفكرون ثم يتحدثون في أمر الخطبة، جهرت بالرفض جهراً وأعلنت الإباء إعلاناً، وخرجت في ذلك عما هو مألوف من أمثالها من فتيات الأسر في الريف، فنبت على أمها نبوّاً وامتنعت على أبيها امتناعاً، وأعلنت أنها تؤثر الموت على أن تكون زوجاً لهذا الشاب الدميم.

وتصور أنت موقع هذا الرفض من نفسي وأثره من قلبي وفي ما كان يملأ نفسي وقلبي من غرور. ثم تصور أن حميدة كانت أبرع من ابنة عمي جمالاً وأكثر منها مالاً، وأذكى منها قلباً وأحسن منها مستقبلاً، وأنها مع ذلك سمعت رفض فهيمة فأنكرته وأظهرت إنكارها، وتعمدت أن يصل حديث هذا الإنكار إلى أهلي ثم إليّ، وكان هذا الإنكار وما أظهرت من أمره وسيلة المودة ثم وسيلة الخطبة ثم وسيلة الزواج. وما زالت فهيمة تنتظر الزوج إلى الآن، ولكن حميدة كيف تكافأ بالكفر، وإلى الجميل كيف يكافأ بالعقوق! ومع ذلك فإني لأنظر الآن في المرآة أمامي فأستكشف في وجهي وخلقي من الدمامة والقبح ما ينهض بألف

عذر وعذر لابنة عمي، وما يثقلني بألوان الندم حين أفكر في ما جزيت حميدة به من العقوق.

أتعرف أني أسافر على سفينة إنجليزية؟ فقد تهيأت لهذه السفينة وأنبأني المنبئون بأن المسافرين على السفن الإنجليزية إذا استقبلوا المساء لبسوا له لباساً خاصاً لا يقبلون في غرفة المائدة بدونه، فاتخذت لنفسي هذا اللباس واتخذته على أحسن ما يتخذه المترفون. فلما أقلعت السفينة وأقبل المساء عمدت إلى هذا اللباس فدخلت فيه، واتخذت ما يتصل به من زينة، وكانت صورة حميدة لا تفارقني، وكانت صورة فهيمة تعرض لي من حين إلى حين. فلما تهيأت للخروج من غرفتي سمعت فهيمة تنكر قبحي ودمامتي، ورأيت حميدة تبسم لي وتشير إلي. هنالك نظرت في المرآة فرأيت، ثم استحييت ثم بكيت، ثم نزعت هذا اللباس نزعاً، ولم أخرج إلى غرفة المائدة هذا المساء. ثم أصبحت فتكلفت المرض وأخذت نفسي بأن آكل في غرفتي. وأقسمت لا أغشى غرفة المائدة ولا مجالس السفينة اجتناباً لسخرية النساء؛ فما أرى منذ الآن أنهن جميعاً فهيمة.

أترى أي حد انتهى الاضطراب بعقل صديقك وبما له من حس وشعور؟ ولن تعلم حميدة من هذا شيئاً، ولن تعرف حميدة أني أجد من الندم على فراقها ما يفسد عليّ حياتي إفساداً، ويوشك أن ينتهي بي إلى شر ما ينتهي إليه الأحياء.

ليتني سمعت لك! وليتني قنعت بما كنت أنعم به في مصر!

فما أظن إلا أني مقدم على سراب أحسبه ماء، حتى إذا بلغته لم أجده شيئاً.

وأخرى لم تعرفها أيها الصديق، ولا بد لك من أن تعرفها لتعلم أنا مكرهون على أكثر ما نأتي من الأمر. وأن اختيارنا لعب كله وغرور كله. فقد كنت أحسب أن الناس لا يعلمون من أمري إلا ما أريد أن يعلموا فأنبئهم به وأظهرهم عليه. وكنت أظن أن أكثر من عرفتهم في القاهرة وعرفوني يجهلون أمر زواجي جهلاً تاماً. وكنت واثقاً بأني أستطيع أن أكذب على الجامعة إن أردت، وأن أزعم لها أني أعزب وأن أمسك على زوجي وأسافر إلى أوروبا لا أصطحبها. وكنت مع ذلك حريصاً أشد الحرص على ألا أكذب الجامعة. ولم يكن يدفعني إلى هذا إلا حب الصدق وإيثار الخلق والظن بكرامة العلم وطلابه على الكذب الظاهر والخفي. وكنت أحمد من نفسي هذا الإقدام على التضحية، وهذا النصح للجامعة، وهذا الإلحاح في أن أكون صادقاً معها في السر والعلانية معاً.

وكثيراً ما وجدت في هذه التضحية التي كنت أحبها وأرضى عنها مظهراً من مظاهر الغرور، ومصدراً من مصادر العجب والتيه والإكبار للنفس. وكنت أقول لنفسي إذا خلوت إليها: ليس كل الناس قادراً على أن يبلغ من حب الصدق وإيثاره هذا الحد. فأنا إذاً شخص نادر وفرد ممتاز. ومن حق الجامعة أن تفخر منذ الآن بخلقي، كما أنها ستفخر بعد قليل بجدي واجتهادي وكفايتي في البحث وقدرتي على الدرس والتحصيل.

وكان هذا الخاطر الجميل يملؤني ثقة بنفسي وإكباراً لها ورضا عنها. ولعل ذلك كان يظهر في ما كنت آتي من حركة وما كنت ألقي من جمل. بل لعل هذا كان يظهر في ما كان وجهي يأخذ أحياناً من الصور والأشكال. ولكن لا تسل عما أدركني من الدهش، وما أصابني من خيبة الأمل، وما ملأ قلبي ذات يوم من الحيرة والاضطراب حين دعاني سكرتير الجامعة لأزوره. فلما لقيته لم يظهر الراحة للقائي، ولم يتكلف الأنس بمقدمي. كما كان قد تعود من قبل، وإنما لقيني فاتراً وحدثني بصوت متكسر، ثم لم يلبث أن أظهر من التجهم والتكبر والاستطالة ما أنكرت، ثم لم يلبث أن ألقى عليّ حديثه قصيراً متقطعاً سريعاً كأنه الصواعق يتلو بعضها بعضاً، وقد اتخذ صورة الأستاذ ولهجته، وصوت الواعظ الغلي في التأنيب، فما ينبغي لطالب العلم أن يكذب وهو القدوة، وما ينبغي له أن يغش وهو الأسوة وقد كانت الجامعة مخدوعة لي. فالآن وقد تبين لها الحق وانكشف لها السر تستطيع الجامعة أن تزهد فيّ زهداً، وأن تنصرف عني انصرافاً. وبين الذين تقدموا للامتحان ونجحوا فيه من يستطيعون أن يشغلوا مكاني في البعثة، وأن يطلبوا العلم صادقين غير كاذبين، ومخلصين غير متورطين في الغش ولا متكلفين للخداع. والجامعة تؤثر ألف مرة ومرة أن تعدل عن إرسال البعوث، وأن تغلق أبوابها إغلاقاً في سبيل الطلاب الذين يختلفون إليها على أن تهيئ للأمة أساتذة يقيمون حياتهم العلمية على الكذب والغش، وعلى الخداع والنفاق.

ولست أخفي عليك أني ضقت بهذا الواعظ الثرثار، وتعجلته إتمام الحديث والانتهاء إلى ما يريد. فلم يتردد في أن يلقي إلي ما عنده إلقاء فيه كثير من الازدراء. قال: زعموا أنك متزوج يا سيدي، وقد زعمت لنا أنك حر طليق.

هنا أريد أن أستغفرك أيها الصديق، وما أدري أتغفر لي؟ فقد أسأت بك الظن واتهمتك بأنك أقدمت على الوشاية بي مخلصاً حسن النية تريد أن تحول بيني وبين الظلم، كما أقدمت أنا على تطليق حميدة مخلصاً حسن النية أريد أن أفرغ للعلم وأن أتجنب الخيانة والإثم.

نعم! أسأت بك الظن واتهمتك، ورأيت ما بيننا من الصلات وقد تصرم وتقطعت أسبابه، وأحسست شيئاً من الحزن لكذب ظني بك وخيبة أملي فيك، وكان هذا كله سريعاً مسرفاً في الإسراع لم أكد أتنبه إليه، ولم يتنبه سكرتير الجامعة إلى أن شيئاً غيره وغير حديثه كان يشغلني. فقد أخذت أسأله من زعم لك هذا السخف؟ ومن ألقى إليك هذا الهذيان؟ وكيف تسمع الجامعة لكل ما يُلقى من القول إليها! وكيف تصدق كل ما يرفع إليها من الحديث! وما ينبغي لك أن تلومني هذا اللوم، وتؤنبني هذا التأنيب! قبل أن تتحقق أنك تتهمني بما لا أستطيع له دفعاً، وتأخذني بما لا أجد منه مخرجاً.

قال الرجل: مهلا يا سيدي، فليس يغني عنك ما أنت فيه

منذ الآن من التجاء إلى الجدال وشغف بالمراء؛ فقد ألقي إلينا أنك متزوج، ثم ألقي إلينا اسم الأسرة التي أنت مصهر إليها، فلم نأخذ بالمظنة ولم نطمئن إلى الريبة، وإنما بحثنا واستقصينا وسألنا حتى تبين لنا لحق وعرفنا أنك قد خدعتنا وضللتنا تضليلاً. وما دعوناك اليوم إلا لنقطع ما بينك وبيننا من صلة فنرد إليك ما أخذنا منك، ونسترد ما أخذت منا.

قلت وقد ثاب إليّ عقلي كله، وحرصي على البعثة: قد كان ذلك ممكناً منذ أيام، أما الآن فلا. ثم قدمت إليه صك الطلاق. فلم يكد ينظر فيه حتى تغيرت حاله معي تغيراً تاماً، وإذا هو يصافحني مكبراً لي معجباً بي. ألم أقدم على عمل خطير!؟ ثم تبسط معي في الحديث وقد ضم الصك الذي دفعته إليه إلى ما ينبغي أن يحفظ من أوراقي عنده، وما زلت أتلطف له وأمكر به، حتى أطلعني على ذلك الكتاب الذي ارتفع إليه بالنميمة وأنبأه بزواجي. فقرأت ويا شر ما قرأت! وعلمت ويا شر ما علمت! علمت أن صاحب هذا الكتاب صديق لي متصل بي، يتكلف المودة ويظهر النصحية والإخلاص، ولكني علمت أنك لست صاحب هذا الكتاب ولا مقترف هذه الوشاية.

وخرجت من الجامعة راضياً ساخطاً ومسروراً محزوناً. راضياً لأن البعثة لم تفلت مني، وراضياً لأنك أنت لست الواشي بي، وساخطاً لما انطوت عليه جنُوب الناس من المكر والخداع، ومن الكذب والنفاق، ومن الحسد الذي يفسد عليها كل شيء.

فلم يكن لهذا الصديق الذي وشى بي طمع في البعثة ولا طموح إليها، وإنما هو الحسد وحده. رأى أني سأسافر إلى حيث لا يستطيع ولا يأمل أن يسافر، ورأى أن حالي قد تتغير وأن حياتي قد تصلح، وأني قد أرقى إلى منزلة لا يستطيع أن يطمع فيها ولا أن يسمو إليها، فكره ذلك وضاق به، ثم جد في أن يحول بيني وبين ذلك، وأن يمسكني في المنزلة التي أمسكته فيها الظروف، فأبقى مثله خاملاً متواضعاً محدود الأفق من البيت إلى الديوان، ومن الديوان إلى البيت، والقهوة بين ذلك أحياناً.

نعم أيها الصديق! خرجت راضياً وساخطاً، وأنا لا أفكر حين كنت أحس الرضا أو أجد السخط إلا في شيء واحد، وهو أن كيداً كان يكادني فخلصت منه، وأن مكراً كان يمكر بي فانتصرت على أصحابه ورددت سهامهم في نحورهم. ثم هبط بي القطار إلى البحر، وأخذت السفينة تمضي بي إلى ما وراء البحر، وأخذت صورة حميدة تلزمني وتلح عليّ، وأخذ الندم يثير في نفسي من الخواطر ما يثير، وإذا أنا الآن أسأل نفسي عن هذه الوشاية التي أنكرتها: ألم تكن خيراً قد صرف عني وحيل بيني وبين الانتفاع به؟ فلو قد نجحت هذه الوشاية وحيل بيني وبين البعثة لكان هذا الإخفاق أول العقاب على ما جنيت من ذنب، ولكان نذيراً بما كان ينتظرني من الشر إن تممت على ما بدأت من الظلم، ولكان خليقاً أن يردني إلى حميدة أو أن يرد حميدة

إليّ. ولكن الله لم يرد إلا أن يقدم بين يدي هذه الرحلة نذيراً بما ينتظرني فيها من الآلام، وطليعة لما ينتظرني وراء البحر من الشر.

وصدقني أيها الأخ العزيز إني لأدنو الآن من فرنسا خائفاً وجِلاً شديد التشاؤم، لا أنتظر خيراً ولا نجاحاً، وإنما أنتظر شراً كثيراً وإخفاقاً شنيعاً. ولو طاوعت نفسي لما استقررت في مرسيليا إلا ريثما آخذ السفينة التي تردني إلى مصر. ولكن ما يقول الناس؟ وماذا أقول لنفسي؟ وكيف ألقى غيرك من الأصدقاء المخلصين ومن الأعداء الشامتين؟ وماذا أقول لأهلي وماذا أقول لحميدة؟ أأمضي في فراقها؟ ولماذا وأنا لم أفارقها عن قلىً ولا عن بغض؟ أم أعود إليها نادماً بائساً معتذراً مستغفراً؟ ولكن أتسمع لي؟ أتعطف علي؟ ثم ما نفع هذا الحديث الذي هو بالهذيان أشبه منه بالجد؟ إن السفينة لتمضي أمامها لا تلوي على شيء، ولن تقف حتى تبلغ مرسيليا. ولو أردت أن أوقفها لما بلغت من ذلك شيئاً مهما يكن إلحاحي وصياحي، ومهما أتخذ من وسيلة عند القبطان. وإنما حياتنا كهذه السفينة تمضي بنا إلى حيث يريد القضاء لا إلى حيث نريد. ومهما نلح، ومهما نصح، ومهما نتخذ من وسيلة، فلن نوقف حركتها ولن نردها إلى وراء، ولن نتقي الانتهاء إلى هذه الغاية التي رسمها لنا القضاء.

فلأمض إذاً إلى حيث تريد السفينة أن تنتهي بي. ومن يدري! لعلي أعود إليك بعد حين ولم أر باريس، ولم أختلف إلى

السربون، ولم أشهد أندية اللهو والمتاع. ومن يدري! لعلي لا أعود إليك حتى آخذ من هذا كله بحظ. وكل ما أستطيع أن أقطع به الآن هو أن هذه السفينة التي تعبر بي بحر الروم، ستوفي بي من بعد بحر إلى بحر، كما يقول مسلم بن الوليد. ولكن البحر الذي ستوفي بي إليه ليس هذا ولا ذاك من أولئك الأجواد الذين كانوا يفتنون الشعراء، وإنما هو بحر آخر عريض لا حد لعرضه، عميق لا آخر لعمقه. هو بحر هذه الحياة الأوروبية المملؤة باللذة والألم، المفعمة بالخير والشر. فليت شعري أأرسب فيه أم أطفوا عليه؟

الآن أحس أني قد أطلت عليك. وإنما يذكرني بك ويثير في نفسي الإشفاق عليك من الإطالة هذه الحركات التي أسمعها تكثر من حولي في الغرف المجاورة وفي الطريق أمام هذه الغرف؛ فقد فرغ السفر من لهوهم ورقصهم وعادوا إلى غرفهم يقضون فيها ما بقي لهم من الليل.

وداعاً يملؤه الحب والود والحزن أيها الصديق! فما أدري! لعلي لا أكتب إليك بعد هذا الكتاب.

عصفور من الشرق

توفيق الحكيم (1938)

توفيق الحكيم (898 ـ 1987) كاتب وأديب مصري، من رواد الرواية والكتابة المسرحية العربية ومن الأسماء البارزة في تاريخ الأدب العربي الحديث.

تعد مسرحيته المشهورة أهل الكهف في عام 1933 حدثاً هاماً في الدراما العربية، فقد كانت تلك المسرحية بداية لنشوء تيار مسرحي عرف بالمسرح الذهني. بالرغم من الإنتاج الغزير للحكيم فإنه لم يكتب إلا عدداً قليلاً من المسرحيات التي يمكن تمثيلها على خشبة المسرح، فمعظم مسرحياته من النوع الذي كُتب ليُقرأ فيكتشف القارئ من خلاله عالماً من الرموز التي يمكن إسقاطها على الواقع في سهولة لتسهم في تقديم رؤية نقدية للحياة والمجتمع تتسم بقدر كبير من العمق والوعي.

أرسله والده إلى فرنسا ليبتعد عن المسرح ويتفرغ لدراسة القانون، ولكنه وخلال إقامته في باريس لمدة 3 سنوات اطّلع على فنون المسرح الذي كان شُغله الشاغل، واكتشف الحكيم

حقيقة أن الثقافة المسرحية الأوروبية بأكملها أسست على أصول المسرح اليوناني، فقام بدراسة المسرح اليوناني القديم كما اطّلع على الأساطير والملاحم اليونانية العظيمة.

ولد توفيق إسماعيل الحكيم بالإسكندرية عام 1897 لأب مصري من أصل ريفي يعمل في سلك القضاء في قرية الدلنجات إحدى قرى مركز إيتاي البارود بمحافظة البحيرة، وكان يعدُّ من أثرياء الفلاحين، ولأم تركية أرستقراطية كانت ابنة لأحد الضباط الأتراك المتقاعدين.

غادر إلى باريس لنيل شهادة الدكتوراه (925 ـ 1928). وفي باريس، كان يزور متاحف اللوفر وقاعات السينما والمسرح، واكتسب من خلال ذلك ثقافة أدبية وفنية واسعة إذ اطلع على الأدب العالمي وفي مقدمته اليوناني والفرنسي. وانصرف عن دراسة القانون، واتجه إلى الأدب المسرحي والقصص، وتردد على المسارح الفرنسية ودار الأوبرا، فاستدعاه والداه في سنة 1927، أي بعد ثلاث سنوات فقط من إقامته هناك، فعاد الحكيم صفر اليدين من الشهادة التي أوفد من أجل الحصول عليها. عاد سنة 1928 إلى مصر ليعمل وكيلاً للنائب العام سنة 1930، في المحاكم المختلطة بالإسكندرية ثم في المحاكم الأهلية. وفي سنة 1934 انتقل إلى وزارة المعارف ليعمل مفتشاً للتحقيقات، ثم نُقل مديراً لإدارة الموسيقى والمسرح بالوزارة عام 1937، ثم إلى وزارة الشؤون الاجتماعية ليعمل مديراً لمصلحة الإرشاد

الاجتماعي. استقال في سنة 1944، ليعود ثانية إلى الوظيفة الحكومية سنة 1954 مديراً لدار الكتب المصرية. وفي نفس السنة انتُخب عضواً عاملاً بمجمع اللغة العربية. وفي عام 1956 عيّن عضواً متفرغاً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بدرجة وكيل وزارة. وفي سنة 1959 عيّن كمندوب مصر بمنظمة اليونسكو في باريس. ثم عاد إلى القاهرة في أوائل سنة 1960 إلى موقعه في المجلس الأعلى للفنون والآداب. عمل بعدها مستشاراً بجريدة الأهرام ثم عضواً بمجلس إدارتها في عام 1971. تُرجم العديد من أعماله إلى كثير من اللغات الأجنبية وحصل على عدة جوائز.

أعماله:

- عودة الروح
- يوميات نائب في الأرياف
- الأيادي الناعمة
- عصفور من الشرق
- بجماليون
- الملك أوديب
- سليمان الحكيم
- عودة الوعي
- بنك القلق

الرواية:

صدرت رواية «عصفور من الشرق» عام 1938 وترجمت ونشرت بالفرنسية عام 1946. وهي تعتبر، مع رواية «أديب» لطه حسين بداية روايات المغتربين، نرى فيها بطل الرواية قد حمل كلّ عاداته المحلية معه إلى بيئته الجديدة في الغربة، أي أن انتقاله إلى أوروبا انتقال مكاني وليس في النظرة إلى الحياة.

ooo

نزل «محسن» الدرج؛ ليخرج كعادته إلى الطريق، يستنشق هواء ذلك الصباح الجميل، فرأى باب حجرة صديقه «إيفان» مفتوحاً، وسمع سعاله، فعطف عليه، وضرب الباب مستأذناً... فأذن له ودخل الفتى، فوجد الروسي جالساً على سريره، أصفر الوجه، بين يديه كتب ثلاثة، فقال له:

ـ كيف حالك اليوم يا مستر «إيفانوفتش»؟...

ـ بخير!...

قالها الرجل على نحو غريب، عجب له الفتى، ونظر بطرف عينه إلى الكتب، وقرأ في دهشة:

ـ «التوراة»، «الإنجيل»، «القرآن»!...

ثم التفتَ إلى «إيفان» وقال:

ـ عجباً!... إنك في ما أعلم لا تؤمن بشيء...

فقال الروسي؛ كالمخاطب لنفسه:

ـ أريد أن أعرف: كيف استطاعت هذه الكتب الثلاثة أن تعطي البشرية راحة النفس، وأن تغمرها في ذلك الاطمئنان؟!... نعم!... إني لا أومن بشيء، وإني أرى أحياناً الموت دانياً مني وفي يده «خرقة» ليمحوني كما يمحو رقماً كتب بالطباشير فوق لوحة سوداء!... فأحتقر نفسي، وأزدري كل حياة إنسانية... آه!.... ما أسعد أولئك المؤمنين، الذين يرون الموت مرحلة إلى حياة أخرى مجيدة جميلة!... إنهم لا شك ينظرون إلى الموت؛ كأنه عربة «بولمان» في قطار سريع، يذهب بهم إلى نزهة «آخر الأسبوع»... إن مثل هؤلاء لا يمكن أن يروا الحياة الإنسانية إلا أنها شيء عظيم... لأنها تشغل الكون دائماً، طول الخلود، أنهم لا يستطيعون أن يزدري هؤلاء الناس أنفسهم!...

آه!... ثق أني أريد «فالرغبة» والإرادة لا تعوزاني... ولكن... أمن الممكن لمثلي الآن أن يؤمن بالجنة والنار؛ كما كان يؤمن بها المسيحيون في عصر الشهداء؟!... إنهم كانوا يتقدمون للذبح، ويُلقى بهم إلى أنياب السباع وهم يبتسمون، راضين مقتنعين أن أبواب الجنة مفتوحة لاستقبالهم، مصغين إلى صوت المسيح يقول لهم من علي: «طوبى لكم؛ إذ عيّروكم، وطردوكم، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين، افرحوا!... وتهلّلو؛ لأن أجركم عظيم في السماوات!.

ومثل إيمان المسلمين في عهد النبي فقد حدث في موقعة «بدر»، التي نشبت بين المسلمين وأعدائهم من قريش، أن مسلماً

ترك القتال وانتحى يأكل بلحاً فسمع النبي يقول: «لا يقاتل اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً، إلا أدخله الله الجنة!... فقذف الرجل بالبلح من يده، وقام يصيح: «أفما بيني وبين دخول الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟!...» ثم رمى نفسه في أحضان الأعداء...

نعم، يخيل إلي أن مثل هذا الإيمان لا يمكن أن يعرفه الغرب اليوم!... إن الشرق يوم أعطى الغرب هذه الأديان، إنما أعطاها على النحو الذي ذكرنا، فتسلمها الغرب، وألبسها أردية موشاة بالذهب، ووضع على رؤسها التيجان المرصعة بالماس، وأقبضها صولجانات الجاه والسلطان والجبروت الأرضي!... إن الكنيسة في أوروبا، كانت ـ في يوم ما ـ أعظم مؤسسة مالية، وإن نظامها الرأسمالي لأدق نظام... وإن ثروتها الطائلة لتسند ظهر أقوى البيوت المالية، وتقوضها إذا شاءت في طرفة عين. فأين ذهبت كلمة المسيح؟!: «ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله؛ لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله!!...».

وأين ذهبت كلمة النبي محمد؟... «إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة، فاخترت لقاء ربي والجنة!...» ثم قوله أيضاً: «اللهم توفني فقيراً، ولا توفني.... واحشرني في زمرة المساكين!...».

نعم لا شك أن المسؤول عن انهيار مملكة السماء هم رجال الدين أنفسهم!.. أولئك أنفسهم!... أولئك الذين كان ينبغي لهم

أن يتجردوا من كل متاع الأرض، ويظهروا في زهدهم بمظهر المنتظر حقاً لنعيم آخر في السماء... لكننا نراهم هم أول من ينعم بمملكة الأرض، وما فيها؛ من أكل طيب، يكنزون به لحماً، وخمر معتق، ينضح على وجوههم الموردة، وتحت إمرتهم: السيارات يركبونها، والمرتبات يقبضونها!... إنهم يتكلمون عن السماء، وكل شيء فيهم يكاد ينطق بأنهم يرتابون في جنة السماء، وأنهم متكالبون على جنة الأرض، هؤلاء هم وحدهم الذين شككوا الناس في حقيقة مملكة السماء!... إن كل ما بناه الأنبياء: بزهدهم الحقيقي، وجوعهم، وعريهم، مما أقنع الناس بأن هؤلاء الرسل إنما هم حقاً ينتظرون شيئاً في العالم الآخر؛ جاء هؤلاء فهدموه!... وكانوا هم أقوى دليل على كذب مملكة السماء، وخير دعاية لملكة الأرض!... وأنسوا الناس بانغماسهم في هذه الحياة، أن هنالك شيئاً آخر غير هذه الحياة!...

ـ صدقت في كل هذا ما مسيو «إيفان»... إن مسلك رجال الدين قد يشكك عامة الناس... لكن أنت... من كان مثلك على هذه الثقافة وهذا العلم... إنك تستطيع أن تقيم إيمانك على لباب الكتب السماوية وحدها، بغير حاجة إلى أحد...

ـ وهذا ما أردت أن أفعله أيها الصديق، منذ ليال وأيام... غير أني... ينبغي أن أصارحك... لم أستطع... لم أستطع مطلقاً...

ـ لم تستطع ماذا؟!...

ـ آه!... لقد فسدت في رأسي كل تلك الصور الجميلة للحياة الأخرى؛ كما تفسد زجاجات الصور «الفوتوغرافية»، عندما ينفذ الضوء إلى حجرتها السوداء... لست أدري سبباً لذلك... يخيل إلي أنها الحضارة الأوروبية الحديثة. لا تسمح للناس أن يعيشوا إلا في عالم واحد... إن سر عظمة الحضارات القديمة أنها جعلت الناس يعيشون في عالمين... لقد عرفت تلك الحضارات «العلم»، و«العلم التطبيقي»؛ فالحضارة التي تشيد الأهرام، لا يمكن أن تجهل العلوم النظرية والتطبيقية، ومع ذلك فإن ذلك العلم لم يفسد من الرؤس زجاجات الصور، التي تمثل الحياة الأخرى ـ تلك الحضارات أسميها أنا «الحضارات الكاملة»، ولكن آسيا وأفريقيا ارتبطتا بالزواج، في طور من أطوار التاريخ، وأنتجتا مولوداً جديداً: هذه الفتاة الشقراء ـ التي تسمى «أوروبا» ـ جميلة رشيقة ذكية؛ لكنها خفيفة أنانية، لا يعنيها إلا نفسها، واستعباد غيرها!...

وهنا قاطعه «محسن»، قائلاً كالمخاطب نفسه:

ـ «أنانية» لا تعرف غير حياة الواقع، ولا يهمها شقاء الغير، ولا تحب الحياة إلا في... الحياة...

فمضى الروسي يقول، دون أن يفهم ما جال في خاطر الفتى:

ـ نعم، نعم!... هي كذلك حقيقة... «إن هذه الفتاة ترى المجد كله في شيء واحد: تضع الأصفاد في أرجل البشر، وبدأت أول ما بدأت بأبويها: أفريقيا وآسيا... أنكرتهما، وحبستهما... وانطلقت في الحياة، لا يحدها حد، ولا يقوم لها شيء... إلى أن

انتهى بها المطاف في بيت من بيوت الليل؛ تديره، وتشاهد فيه شجار السكارى، يحطمون الكراسي والكؤوس!... إني أخشى أن تكون أوروبا موشكة على دفع الإنسانية إلى هوة... إنها لتثوب أحياناً إلى رشدها، وترى مصيرها؛ فتنقع في أزمة من أزمات الضمير: إنها لتستيقظ فيها الروح أحياناً فتشك في نفسها، ويخيل إليها أن مدنيتها الخلابة ليست إلا بهرجاً، وأن علمها الحديث كله ـ وهو وحده الذي تتيه به على البشرية، في مختلف تاريخها ليس ـ من حيث القيمة العملية ـ غير «لعب» من صفيح وزجاج ومعدن؛ قدمت للناس بعض الراحة في أمور معاشهم، ولكنها أخرت البشرية، وسلبتها طبيعتها الحقيقة، وشاعريتها، وصفاء روحها!... إن السكك الحديدية والطيارات قد أعطتنا السرعة وتوفير الوقت، ولكن ما فائدة ذلك؟... ولماذا السرعة؟... ولماذا توفير الوقت؟!... كأنما قد هبطت علينا شياطين تلهب ظهورنا بالسياط!... ما نحن إلا قطرات ماء في نهر الحياة... ما حظنا من سرعة التيار، واندفاعة إلى البحر؟!... إنما حظنا الأكبر: في التمهل حول الأعشاب النابتة، والسكون عند شواطئ الجزر، يداعبنا النسيم!... من الذي استفاد من هذه السرعة الملعونة غير قبضة من النهمين، جمعوا في أيديهم الثروات، وسموا بالرأسماليين!... أما أنا وأنت وبقية الآدميين الوادعين، فقد خسرنا تلك الرحلات الطويلة، على ظهور الجياد أو الإبل؛ ننزل في كل مرحلة، ننعم بالطبيعة في أشكالها المختلفة، وفي أوقاتها المختلفة!... نعم كسبنا السرعة، ولكن خسرنا ثروة النفس التي تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة، إنما

اليوم نفرح بكلمة السرعة، وننسى أنها ليست سوى إغفاءة، نقضيها في عربة قطار، يرقى بنا في نفق مظلم، ويوصلنا حقيقة في وقت قليل إلى حيث أردنا. ولكننا لا نعرف بعد ذلك ماذا نصنع بالوقت الباقي؛ فننفقه في الحمق والسخف... إن الطبيعة لتنتقم، وإن كل وقت يسرق منها لا نجد له سوقاً ننفقه فيها، غير سوق النخاسة الخلقية، والانحطاط الآدمي!... كذلك «السينما» ـ كما يقول «دوهاميل» ـ لا تعطينا غير الطبيعة محفوظة في العلب، أو قصصاً سخيفة تؤثر في أعصابنا تأثير الأفيون «والراديو» وما يقدمه من قشور المعلومات ورديء ـ الموسيقى... كل شيء في هذه المدنية الحاضرة يتآمر على قتل الفضائل الإنسانية العليا، وصفاتها الآدمية السامية، وقواها الطبيعية الكامنة؛ بتعويدها التراخي والكسل، باسم «الراحة الحديثة»؛ حتى نامت كما نرى النفوس والأرواح، وأصبحنا أمام ناس مصنوعين من «الألومنيوم». مصيبة المدنية الأوروبية نزلت منذ استقرار الصناعة الكبرى!... هذه الصناعة التي شطرت المجتمع الأوروبي إلى شطرين: فئة قليلة كل همُها جمع المال، وفئة كبيرة كل همُها أن تقدم هذا المال في مقابل لقمة!... الفئة الأولى لا دين لها إلا الذهب، والفئة الثانية لا دين لها إطلاقاً ولا شخصية ولا نفس؛ لأنها آلات صماء... إن نظام تقسيم العمل قد أدى إلى أن صنع الدبوس الواحد أصبح محتاجاً إلى ثماني عشرة عملية مختلفة؛ كما يقول «دم سمي»، وأن العامل الواحد قد يقضي حياته كلها في صنع رأس الدبوس فقط، وآخر في صنع جزء آخر منه؛ كذلك الحال في صناعة الأحذية؛

فهي في بعض المعامل الأمريكية تقسيم إلى أكثر من مائتي عملية، يخص العامل الواحد منها جزء واحد من عشرة أجزاء: كعب الحذاء مثلاً... معنى هذا أن العامل لم تبق له حتى تلك اللذة الفنية القديمة، التي كان يحسها ويرتاح إليها، وهو يصنع بيديه حذاءً كاملاً في حانوته الصغير. نعم!... حتى متعة الخلق الكامل، التي كانت تشعره بآدميته قد ذهبت، وأصبح الآن شأنه شأن المخرطة أو المطرقة أو المنشار؛ يخرط، أو يطرق، أو ينشر، جزءاً صغيراً معيناً بالذات من هذا الدبوس أو ذاك الحذاء، وهو يكرر هذه العملية التافهة كل حياته!... ما الفرق بينه إذاً وبين الآله!... لا فرق؛ إن الرجل ما زال يحس آدميته بالنسبة للشيء الذي يصنعه، ويخلقه بيديه؛ آنية من الفخار كان، أو حذاء، أو رداء منسوجاً على نول، أو قطعة أرض يزرعها، ويجني ثمارها!... إنه لم ينقلب بعد ـ لحسن حظه ـ منشاراً آدمياً، أو مخرطة بشرية!... استمع إلى الكاتب الإنجليزي «الدس هكسلي» يصف أوروبا الحديثة: «إن أسلوب الحياة في العصر ليدعو إلى الاشمئزاز؛ ذلك أن تطور النظام الصناعي قد أدى إلى نمو فجائي لتعداد أوروبا؛ ففي نحو قرن واحد تضاعف سكانها، ثم جاء بعد ذلك التعليم الابتدائي للجميع، فنتج عنه ظهور جمهور هائل من القراء، ونشط لهذا الجمهور أصحاب الأعمال، فأنشأوا صناعة جديدة: هي صناعة «مادة القراءة»!... هذه «المادة المقروءة» لم تكن ـ ولا يمكن أن تكون مطلقاً ـ غير بضاعة من النوع الرديء جداً!... لماذا؟... تلك مسألة حسابية: إن عدد الكتّاب، أصحاب

الموهبة الفنية، قليل دائماً... ومن هنا نرى أن الجانب الأكبر للأدب المعاصر، هو دائماً غاية في الرداءة، ولما كان الأوروبيون قد اتخذوا عادة القراءة طول الوقت ـ وتلك رذيلة؛ كعادة تدخين «السجاير»، بل ربما كتدخين «الأفيون» أو تعاطي «الكوكايين» ـ فإن أوروبا اليوم تتغذى بأدب من الطبقة العاشرة. وهذا كله حدث جديد؛ إذ في الماضي لم يكن الناس يعرفون غير عدد قليل من الكتب حقيقة، لكنها كانت من أجود نوع، ولأضربن مثلاً بالإنجليز؛ فلقد كانوا، إلى عصور قريبة، يشبون على «الكتاب المقدس» وعلى رحلة الحاج لـ «جون بانيان»!... كتابان لا نظير لهما في نبل المعنى وصفاء الأسلوب!... أما اليوم فإنهم يشبون على «الديلي إكسبريس» وعلى المجلات والقصص البوليسية؛ فالتعليم العام كان له هذه النتيجة السيئة: فهو بدلاً من أن يجعل الناس يقرأون قليل الآثار الخالدة، قد جعلهم يقرأون دائماً حماقات مخجلة!... إن الفن القديم قد يقصر أحياناً عن الإجادة؛ لأنه ساذج أو ناقص، ولكنه لم يكن يوماً قط مبتذلا. لماذا؟... لأن الأقدمين لم تهيأ لهم الأسباب أن يكونوا مبتذلين!.

فأطرق «محسن» قليلاً ثم قال:

ـ نعم، ربما كان هذا صحيحاً!... إن الأعرابية في خيمتها، تلك التي كانت لا تعرف ما هي القراءة والكتابة، كانت تتذوق الجيد من شعر جرير، والأخطل، والفرزدق، وتتغنى بأحسن أغاني مصعب، ونصيب، وإسحاق الموصلي، وتطرب للفجر الجميل،

وتهتز نفسها لنسيم الأصيل، وتغل الصحراء ـ بفتنتها الطبيعية ـ على سحر القصور الزائف!... إن مستوى الذوق العام ـ وبالأحرى مستوى الثقافة الحقيقية ـ لا شأن له بكتابة أو قراءة!...

فقال الروسي بقوة:

ـ على النقيض: إن فكرة التعليم العام للقراءة والكتابة كغيرها من بقية الأفكار الأوروبية الخاطئة التي روجتها أوروبا، وجعلتها بمثابة المبادئ الثابتة ثبوت للعقائد. قد انقلبت أسلحة فتاكة لجوهر الطبيعة البشرية: فالدهماء التي تعلمت تلك الرموز السخيفة، ماذا اكتسبت؟... لقد حشت أدمغتها بسخف وقاذورات كما يقول «هكسلي»، وهبط مستوى ذوقها، ومع ذلك لم تتكون لها شخصية ولا إرادة: فها أنت ذا تراها تنقاد كالخراف إلى كل من يقوم فيها ناعقاً أمام «ميكروفون»: فالدهماء هي الدهماء، ولا أصلح لقلبها وعقلها من وسائل الشرق الطبيعية في التهذيب: تعمير قلبها بالدين وعقلها بالكتب السماوية النبيلة الفصيحة، وتركها تتصل بالطبيعة لا «محفوظة في علب»... الراديو والسينما والكتب، ولكن الطبيعة الحقيقة. أمنا الرؤوم: تكشف لهم عن جمالها وأسرارها مباشرة، بغير وسيط من الرأسماليين المغامرين، وأصحاب الأعمال الأفاكين!... تلك هي نتائج العلم التطبيقي عندما ترك في أيدي الأوروبيين، وذاك أثره في النفس الإنسانية. أنظر بعد ذلك أثره في جسم البشرية، تجد أنه استحال إلى قنابل وغازات خانقة وطوربيد وغواصات ودبابات،

إلى آخر ذلك الإبداع والتفنن في وسائل الفتك بأجسام البشر؛ فالعلم التطبيقي في الغرب كل محوره تحطيم البشرية روحاً وجسماً!... إن العلم تلك «الماسة» العظيمة المتألقة؛ لم تضعها أوروبا في قمة عمامتها، لتشع نوراً وجمالاً، ولكنها وضعتها في سن مخرطة بخارية، لتقطع بها زجاج ذلك الكأس العظيم: كأس البشرية الممتلئ بماء روحها، ومادة جسدها!... أما العلم الصرف، البعيد عن ضوضاء «الآلة»، ومطامع أصحاب المنافع، فإن الشرق هو الذي عرفه لذاته، كمظهر من مظاهر العبقرية الآدمية المفكرة، في تعطشها لمعرفة الحقيقة العليا!... وهنا كل نبل العلم، وغايته. هذا العلم الخالص أورثته أفريقيا وآسيا فتاتهما الشقراء أوروبا، سبائك ذهبية وأحجاراً كريمة من الزمرد والفيروز والياقوت، فاحتفظت الفتاة ببعضه، وجعلته حلياً لبهرجها، وهنا كل جمال أوروبا الفكري الباقي، أما بقية الكنوز فصهرتها وصكتها نقوداً تضعها في المصارف، وصنعت منها أغلالاً تستعبد بها العالم!... ومع ذلك فهي لم تعرف التحلي بالعلم لذاته إلا منذ عهود قريبة!... لا تنس أن أوروبا هي الوحيدة التي أعدمت في يوم علمائها حرقاً، واتهمتهم بالسحر والجنون، وخنقت حرية الرأي حتى في شؤون الأدب والفن. وجعلت من المسيحية التي تبشر بالمحبة والسلام، سلاحاً للفتك أمام محاكم التفتيش. ولكن أوروبا اليوم أبرع قليلاً من ذي قبل، فهي تجيد إخفاء حيوانيتها، تحت ريش صناعي يمثل أجنحة ملك سماوي. إن أوروبا اليوم في أزمة شديدة. لا شك أنها أخطر أزمة

مرت بها؛ ذلك أنها قد تنبهت إلى أن ما زعمته مدنية عظيمة قد أفلست، وظهرت من تحت الريش أنياب الخنازير البرية!... وقد فهم الشرق أن فتاته ليست إلا غانية خليعة، لا قلب لها ولا ضمير، وليست لها قيمة روحية ولا خلقية، وأن مآلها السقوط، ممزقة الجسد، تحت موائد المعربدين، في ذلك الحان الذي تشرف نوافذه من جهة، على المحيط الأطلنطي، ومن الجهة الأخرى على البحر الأسود!... أيها الصديق!... إلى الشرق!... إلى الشرق!... فلنرحل معاً إلى الشرق... إن أجمل ما بقي لأوروبا إنما أخذته عن الشرق!... لم تعد حياتي هنا!... إن العودة إلى الهدوء والصفاء هي في عودتنا إلى فضاء الصحراء، هناك نستنشق بملء رئتينا، لا دخان المداخن، ولكن رائحة السماء، هناك لا نجد تلك السحب الكثيفة، التي تحول بيننا وبين الله؟... هلم بنا؛ لقد يئست... إن قليلاً من الأمل كان قد داعب قلبي؛ إذ تذكرت منذ أيام حكاية عودة الشاعر الفرنسي «كوكتو» إلى حظيرة الكنيسة، وأنت لا شك تعرف حكاية هذا الشاعر القلق! لقد استنفد كل حياة الفكر والفن، وعرف المجد الأدبي، وانغمس في نهر الحياة اللاهية، وبلغ كل ما يستطيع أن يبلغه الفكر الشارد وحده بعيداً عن الإيمان!... فماذا حدث؟... تملكه السأم من الحياة، وشعر بالنقص في كيانه، وبالفراغ في قلبه؛ ـ فضاق ذرعاً بأيامه، فألقى بنفسه القلقة في أحضان «الأفيون»، لعله يجد فيه الشفاء والراحة. استمع إليه يقول في خطابه، إلى نهر الموتى، إنه ينسخنا، أو يحولنا إلى شبه مرج من المروج اللطيفة،

ويجعل من جسدنا ليلاً، تتزاحم فيه النجوم، كأنها النمل، ولكن سعادتنا هي سعادة في مرآة تغدو فيها من رؤسنا إلى أقدامنا محض أكذوبة وإذا نحن كالمومياء: تقف آلة الأجسام وتأبى الأعضاء أن تطيع، لا تؤثر فينا تقلبات الطقس، وما نعود نشعر ببرودة أو حرارة!... لقد كان مصوّرو «نايلي» يزينون حيطان المساكن، بما يسمونه «خدعة العين». إن «الأفيون» ليس إلا مصوراً طريقته خدعة الروح، إنه يزين حيطان الحجرة التي أدخن فيها فترتاح نفسي، إن الأفيون هو طارد الحيرة والقلق... إن الأفيون ليشبه «الدين» بالقدر الذي يشبه فيه «المشعوذ» «المسيح!»... ألخ. الخ. وأشرف «كوكتو» أخيراً على الدمار، إلى أن ألقى بنفسه في أحضان الدين، هنا كان أملي الأخير أنا أيضاً؛ إذ اعتقدت أن الأوروبي المفكر، الذي شب على هذه المدنية، يستطيع أن يعود إلى الإيمان الحقيقي في الوقت المناسب، إلى أن قرأت هذه الرسالة المتبادلة بين «كوكتو وماريتان»، فخامرني الشك... إنها رسائل على غاية ما تكون من البراعة في الأسلوب، واتقاد الذكاء، ولكنها ليست أكثر من «قطع أدبية!». آه، إنهم يكتبون «أدباً»، هؤلاء الناس – حتى يوم يوهموننا أن المسألة مسألة حياة أو موت... إن الفرق بين عبقرية الغرب الروحية، وبين عبقرية الشرق الروحية: كالفرق بين «المشعوذ» و«المسيح!»... خذ هذين الكتيبين: إقرأهما، وأخبرني هل تصدق أن هذين الرجلين يعتقدان حقاً بالسماء وما فيها، من جنة ونار، اعتقاد ذلك المسلم الذي قلت لي الآن: إنه ألقى البلح من يده،

وجرى يقدم نفسه للقتل؛ واعتقاد أولئك الشهداء من المسيحين الغابرين!... إني أفهم أن يتكلم هؤلاء الشعراء الأوروبيون عن الدين والمسيح كلاماً كله إعجاب خالص!... إني أيضاً أعجب الإعجاب الخالص بالأديان، ولكن الذي أريد ليس مجرد الإعجاب، كما تفعل أمام قطعة فنية، من عمل عظماء الفن أو الأدب أو الفكر!... لست أريد الإعجاب الناشئ عن آلاتنا المفكرة، وما فيها من بضاعة ثقافية مكتسبة أو موروثة؛ ـ إنما أريد الإيمان؛ إيمان القلب «الإيمان الأعمى بأن المسيح في السماء، وأن الله هو الله كما يتصوره البسطاء، وأن الجنة هي الجنة كما يتخيلها أولئك الذين قال فيهم المسيح: «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات!... طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله!.» آه يا صديقي، يا أخي!... إن أوروبا كلها الآن ليست إلا رجلاً مفكراً قلقاً حائراً يتعاطى الأفيون. إن «جان كوكتو» هو كل «أوروبا» في أمتها الحاضرة!... أنتهت أوروبا، ولا شيء من داخلها يستطيع إنقاذها؛ لأن كل شيء، إلى «عقليتها» هذه ـ تحوله إلى أدب وأسلوب وزيف وكذب!... إنما الإنقاذ من الخارج، إنما النجاة في الفضاء إلى هناك... إلى الشرق... قم معي... إلى الشرق!... دع الهواء يدخل، أخلع عني هذه الأردية الثقيلة، هذه السحب الكثيفة تحجب عني.

وامتلأ فم الروسي برغوة وزبد، ووضع يده على عنقه يمزق قميصه، كأنما هو يختنق، وأصفر وجه «محسن» ولم يبدِ حراكاً...

ثم تنبه قليلاً من ذهوله، فصاح صيحة مدوية، وأسرع إلى الباب يطلب النجدة!...

اعتكف «محسن» بضعة أيام، علم خلالها أن صحة «إيفانوفتش» غاية في السوء، وجاءه صاحب المنزل ذات صباح يطرق عليه بابه... ففتح له مفزعاً:

ـ ما الخبر؟...

ـ صديقك الروسي...

ـ مات؟....

ـ لما يمت بعد، ولكنه يسأل عنك اليوم منذ طلعت الشمس...

ـ وكيف حاله؟...

ـ لست أدري، هو يزعم أنه اليوم بخير، ولكنه مريض بذات الرئة؛ كما تعلم، داء لا يرحم.. أتذكر ذلك اليوم عندما صحت مستنجداً؟... لقد أغمي عليه أيضاً في المساء، وكان في حالة احتضار حقيقية، فاستدعينا له القسيس، ولكنه ما أن فتح عينيه قليلاً وأبصره حتى صاح فيه وفينا بصوت خائر لكنه ثائر:

ـ «أبعدوا عني هذا السكير بوجناته الموردة»!...

وتصور عندئذ أي حرج وقعنا كلنا فيه!...

على أي حال، قد بلغتك يا مسيو «محسن»، ولك أن تذهب إليه إذا شئت، أو لا تذهب...

وخرج صاحب المنزل، تاركاً الفتى في مكانه مطرقاً

مفكراً... ولم يجد «محسن» بداً من الذهاب إلى «إيفان» على الفور. فقام ومضى إلى حجرته، فوجده في فراشه، يتأمل أشعة الشمس الداخلة من النافذة، وتنبه الروسي لحركة دخول «محسن» فوجه بصره إليه، وأشار له بعين باسمة إلى شعاع ذهبي انعكس على الفراش:

ـ ما أجمل الشمس اليوم!...

ـ نعم...

قالها الفتى في غير اكتراث، وهو يتأمل وجه الرجل الشاحب، وفرحه الذي يشبه فرح الطفل الساذج بهذا الشعاع فوق سريره، وساد صمت، قطعه المريض بشبه همس:

ـ آه!... النور... النور يشرق من بلاد الشمس «ليغرب» في بلاد الغرب!...

ثم التفت إلى «محسن» وقال له في صوت متداع:

ـ اقترب يا صديقي، وانهض قليلاً... فإني سئمت طول الرقاد!...

فتردد الفتى خوفاً عليه:

ـ إني أخشى...

ـ لا تخشَ شيئاً، ضعني بجوار النافذة. أعنّي على الجلوس، حيث يغمرني نور الشمس!...

فلم يرَ «محسن» بداً من تلبية رغبته... فساعده على القيام، ومشى به إلى ظهر صندوقه الخشبي، حيث وضعه عليه وضعاً، فقال الروسي وهو يستنشق الهواء بما بقي له من رئتين:

ـ شكراً لك... أيها... الصديق!...

ثم أمسك بيد «محسن» بين يديه، ونظر إليه طويلاً وقال:

ـ أتعاهدني؟...

ـ على ماذا؟...

ـ أن نذهب معاً إلى... الشرق؟...

فتردد الفتى قليلاً ثم نظر إلى كيان الرجل الواهي:

ـ نعم، عندما تسترد كل صحتك!...

ـ إني أشعر اليوم أني قد شفيت، إن صحتي تسمح لي أن أسافر، اليوم بالذات!... اسمع: إن لدي في هذا الصندق مبلغاً من المال أدخرته يكفي نفقات السفر!... وسأخرج اليوم أبحث عن مشتر لهذه الكتب وهذه الأمتعة... لست في حاجة إلى كتب بعد اليوم، إنما أنا في حاجة إلى... هواء... وفضاء... وصفاء!...

وخشي «محسن» أن تنمو الفكرة في رأس هذا المريض، فيرتكب حماقة تسيء إلى صحته... فلم يُبد تحمساً لما قال... ثم أراد أن يثنيه، عن عزمه فقال:

ـ أرى أنك تقسو في الحكم على الغرب يا مسيو «إيفان»

مهما يكن من أمر، فإن أوروبا قد وصلت بالعلم البشري إلى قمم لم يصل إليها...

فلفظ الرجل ضحكة سخرية، وقال:

ـ من قال لك ذلك... أتعرف ما هو العلم أيها الفتى؟... إن العلم «علمان»: العلم «الظاهر» والعلم «الخفي»، وإن أوروبا حتى اليوم طفلة، تعبث تحت أقدام ذلك «العلم الخفي»، الذي كانت حضارات أفريقيا وآسيا وقد وصلت به حقيقة إلى قمم المعرفة البشرية... أما العلم «الظاهر» وحده فهو كل ميدانها، إلا أن الآلة المفكر محدودة، وإن كل وسائل العلم الظاهر هي أعضاؤنا وحواسنا الظاهرة، وتلك ليس لها من الدقة ما يقتنص، غير الظواهر التافهة: من ظواهر الطبيعة والكون ـ مهما تعاونها الآلات والعدسات... كل هذا العلم الحديث الذي يبهرك، ليس في حقيقته غير «طريقة» و«أسلوب» التفكير المنتظم و«طرائق» البحث العقلي المرتب، أما أكثر من ذلك فلا... وأما أن نسمي مجرد استكشاف بعض خواص الطبيعة بحواسنا، وصولاً إلى قمم المعرفة البشرية، فتلك هي السخرية الكبرى!... إن قمم المعرفة البشرية هي مجاهل ذلك «العلم الخفي»، الذي لم يدخل قط عقل أوروبا؛ لأن وسائلها كما قلت لك لا تهيئها إلا لفهم مظاهر الحياة السطحية، ولا أقسو عليها إذا استعملت كلمة «السطحية» لأنها هي الحقيقة... إن عين العلم الأوروبي لا تقع دائماً إلا على سطح الأشياء؛ ككل عين!... إنها مدنية لا تدرك ولا تعترف إلا

بما يقع تحت لمسها وبصرها ومنطق عقلها، ولا تقوم إلا على عالم المحسوس، وإني أصر على أن هذه الكبيرة إن هي إلا «مدنية ناقصة»؛ لأنها لا تعرف الحياة إلا في «عالم واحد»!... أريد أن أهرب إلى البلاد التي تعيش في «طلين»، تلك البلاد التي ارتفعت فيها المعرفة البشرية إلى قمم «العلمين»...

وسكت الرجل قليلاً، ولمح «محسن» التعب على وجهه فقال له:

لا تتكلم كثيراً!... أرجو منك ذلك... حَسبنا ما حصل في المرة السابقة!...

ـ لن أتكلم، كفى كلاماً... ولكني سأفعل!... إلى العمل!... ثم تحامل ونهض قليلاً مستنداً إلى الحائط فأسرع إليه «محسن»:

ـ إلى أين؟...

ـ أرتدي ثيابي؛ لأخرج فأبيع هذه الكتب... وأتهيأ للسفر...

ـ ليس الآن، ليس الآن... إنك متعب...

ـ دعني، أيها الشاب، سنذهب إلى الشرق، أريد أن أرى جبل الزيتون، وأن أشرب من ماء النيل وماء الفرات وماء زمزم وماء...

ـ وتترك هذه البلاد... وهذه الحضارة... وتترك «بيتهوفن»؟... آه يا مسيو «إيفان»!... إنك تستطيع أن تقول كل شيء عن الغرب فأسمع لك، ولكن «بيتهوفن» ها هو ذا نبي

حقيقي!... ها هو ذا رسول للمحبة والسلام، خليق أن يرفع مجد الغرب إلى أبد الآبدين... وأن يطهر الإنسانية وأن ينير القلوب!...

فالتفت الروسي إلى «محسن» قائلاً في قوة:

ـ بيتهوفن!... بيتهوفن!... نعم «بيتهوفن»، و«هاندل»، و«موراس» و«هايدن»، و«جان سباستيان باخ»، و«ميكل آنج»، و«رفاييل»، و«رمبرانت»، و«باسكال»، و«سان توماس»، و«كوبرنيك»، و«جاليليه»، و«دانتي»... الخ الخ... كل أولئك إن هم إلا زهرات يانعات في حديقة المسيحية الفناء!...

ثم وضع يده على كتف «محسن» المطرق الساهم:

ـ هلم إلى المنبع!... إلى المنبع؟... إلى هناك... إلى هناك!...

ثم ترك الفتى في إطراقه، وتحامل متكئاً على الحائط، يبحث عن حذائه وسترته... ومرت في رأس «محسن» خواطر، وبدت له صورمن الشرق اليوم. فرفع رأسه وقال لصاحبه الروسي:

ـ ألم تر الشرق قط من قبل؟!...

فأجاب الرجل، وهو يضع حذاءه في إحدى قدميه.

ـ لم أره قط إلا في أحلامي... ولكني لن أموت قبل أن أراه!...

فأطرق «محسن» مرة أخرى، وهم أخيراً أن يرفع رأسه ليقول لـ «إيفان»:

ـ مهلاً، مهلاً أيها الصديق!... إن ذلك المنبع الذي تريد أن تراه، وتلك الأنهار التي تريد أن تشرب منها: ـ قد تسممت كلها!... إن «الفتاة الشقراء» يوم حقنت فخذها «بالمورفين» السام لم تترك أبويها سالمين: لقد قُضي الأمر. ولم يعد هنالك نبع صاف؛ فإن الزهد قد ذهب كذلك من الشرق!... وإن رجال الدين هناك يعرف بعضهم اليوم كذلك اقتناء السيارات، وقبض المرتبات، وتورد الوجنات من النعم والمتع، وإن ثياب الشرق الجميلة النبيلة هي اليوم خليص عجيب من الثياب الأوروبية، يثير منظره الضحك، كما يثيره منظر قردة، اختطفت ملابس سائحين من مختلفي الأجناس، وصعدت بها فوق شجرة ترتديها، وتقلد حركات أصحابها!... وإن التعليم العام للقراءة والكتابة، وحق التصويت والبرلمان، وكل هذه الأفكار الأوروبية قد أصبحت في الشرق اليوم مبادئ ثابتة، يؤمن بها الشرقيون إيمانهم ـ بل أكثر من إيمانهم ـ بمبادئ الأديان!... وإنه لمن السهل أن تقنع شرقياً اليوم بأن دينه فاسد، ولكن ليس من السهل أن تقنعه بأن «الصناعة الكبرى» هي عجلة «إبليس» التي يقود بها الإنسانية إلى الدمار... وأن التعليم العام لرموز الكتابة نوع من الهراء، وإنك قد تستطيع اليوم أن تقتلع من رأس الشرقي عظمة السماء... ولا تستطيع مطلقاً أن تقتلع منه عظمة «العلم الأوروبي الحديث»، وإنه لمن اليسير أن تسفه عند الشرقي الآن «رسالة» الأنبياء، ولا يمكن أن تسفه لديه «رسالة» القوة المادية الحديثة!... بل من العجيب أن هذه الأفكار والمبادئ التي تعتبر في الشرق اليوم

ثابتة ثبوت الآيات المنزلة قد يناقشها الأوروبيون أنفسهم وينقضونها، وهي ما تزال حافظة عندنا كل قوتها!... وإن المدفع قد ينطلق في أوروبا ضد بعض هذه الأفكار، ونرى ضوء لهبه، ولكن الصوت لا يصل إلى آذاننا... لا لبعد المسافة: بل لأن آذاننا لا تسمع، وقلوبنا لا تعي!... لقد كانت «الحقنة» شديدة الفعل والأثر... نعم، ولا أحد يدري هل أوروبا حقنت الشرق بأفيون خالص أو بأفيون ممزوج بسم نافع، سرى ــ وما زال يسري ــ في شرايينه يقتل كل بذور المثل العليا الشرقية في النفوس: فشبان الشرق اليوم ــ عندما أرادوا أن يتخذوا لهم مثالاً للرجولة والبطولة ــ لم يتجهوا شطر «غاندي» ولكنهم اتجهوا بعيون؛ كأنها منومة تنويم المغنطيس شطر «موسوليني»، ويوم أرادوا أن يجعلوا للتقشف والجلد والخشونة لباساً، لم يضعوا على أبدانهم العارية القوية رداء بسيطاً من القطن، يصنعونه بأيديهم: ــ لكنهم ارتدوا القمصان الأوروبية ذات الألوان!... إذاً حتى أبطال الشرق قد ماتوا في قلوب الشرقيين!...

نعم، اليوم لا يوجد شرق!... إنما هي غابة على أشجارها قردة تلبس زي الغرب، على غير نظام ولا ترتيب ولا فهم ولا إدراك. لم يجرؤ «محسن» أن يقول هذا الكلام لصاحبه الروسي؛ فقد أدرك أن هذا الرجل، الذي لم يستطع شيء في الغرب أن يشفي نفسه القلقة الحائرة: ــ قد وضع كل أمله في الشرق، وقد صنع للشرق في رأسه صوراً عظيمة هي كل أمله الباقي، وإن

كشف الحقيقة لعينه الآن أفظع طعنة يقتل بها هذا المسكين، فتركه في خيالاته...

ورفع الفتى رأسه أخيراً ليرى ماذا يصنع صاحبه، فألفاه ملقياً على ظهر الصندوق ورأسه إلى الحائط وفي إحدى قدمية الحذاء، فأخذه روع لمرآه وأسرع إليه:

ـ ماذا بك؟... مسيو «إيفان»!... ماذا بك؟!...

فقال الرجل في صوت كالحشرجة:

ـ فات الأوان!...

ـ أي أوان؟!...

ـ اذهب أنت وحدك... إلى... هناك...

ـ أأستدعي لك الطبيب، يا مسيو «إيفان»؟... أأطلب لك؟...

ـ لا... لا تفعل شيئاً... إني... أعرف نفسي...

ومال رأسه، وانطفأ النور الباقي من عينيه، لكنه تحامل وقال في صوت لا يكاد يسمع:

ـ إذهب أنت يا صديقي... إلى هناك... إلى النبع... واحمل ذكراي وحدها معك... وداعاً...

قنديل أم هاشم

يحيى حقي (1944)

يحيى حقي (1905 ـ 1987) روائي مصري كبير، صاحب رواية قنديل أم هاشم. عُيِّن أميناً لمحفوظات القنصلية المصرية في جدة عام 1929، ثم نقل منها إلى إسطنبول عام 1930، حيث عمل في القنصلية المصرية هناك، حتى عام 1934؛ بعدها نقل إلى القنصلية المصرية في روما، التي ظل بها حتى إعلان الحرب العالمية الثانية في سبتمبر عام 1939؛ إذ عاد بعد ذلك إلى القاهرة في الشهر نفسه، ليعيَّن سكرتيراً ثالثاً في الإدارة الاقتصادية بوزارة الخارجية المصرية، وقد مكث بالوزارة عدة سنوات رقي خلالها حتى درجة سكرتير أول، حيث شغل منصب مدير مكتب وزير الخارجية، وقد ظل يشغله حتى عام 1949م؛ وتحول بعد ذلك إلى السلك السياسي إذ عمل سكرتيراً أول للسفارة المصرية في باريس، ثم مستشاراً في سفارة مصر بأنقرة من عام 1951 إلى عام 1952، فوزيراً مفوضاً في ليبيا عام 1953.

أعماله:

نشر أربعة مجموعات من القصص القصيرة. ومن أشهر رواياته: «قنديل أم هاشم» و «البوسطجي». كتب العديد من المقالات والدراسات النقدية.

أنشئت مصلحة الفنون سنة 1955 فكان أول وآخر مدير لها، إذ ألغيت سنة 1958 فنقل مستشاراً لدار الكتب. وبعد أقل من سنة واحدة أي عام 1959 قدم استقالته من العمل الحكومي، لكنه ما لبث أن عاد في أبريل عام 1962 رئيساً لتحرير مجلة «المجلة» التي ظل يتولى مسؤوليتها حتى سنة 1971.

الرواية:

إسماعيل، بطل الرواية، طالب يعيش في حي السيدة زينب مع أمه وأبيه، ثم يسافر لاستكمال دراسة الطب في إنجلترا، حيث يحتك بالحضارة الأوروبية. وهناك يتعرف على فتاة إنجليزية تعلمه كيف يحب الحياة وكيف يكافح ليكون فرداً منتجاً مستقلاً، ثم يعود إسماعيل إلى مصر ويعمل طبيبًا للعيون ويفتح عيادة في نفس الحي، السيدة زينب، يكشتف أن سبب الإصابة بالعمى وضعف النظر عند مرضاه هو استخدامهم قطرات من زيت قنديل المسجد. وعندما يكتشف أيضًا أن خطيبته تعالج بنفس الأسلوب يحطم قنديل المسجد. وينفضُ عنه مرضاه وأهله لاعتقادهم أنه يهاجم ويتحدى معتقداتهم الدينية. ولا يجد بدًا من عقد مصالحة بين العلم والمعتقدات، فيعود لعلاج ابنة خالته وخطيبته فاطمة مستخدمًا الإيمان والعلم معًا. ويكتشف إسماعيل أنه من الأهمية

اكتساب حب الناس وأسرته وليس تحدي معتقداتهم الدينية. والرواية توضح من خلال الرمز «الموقف الذي ينبغي أن يتبناه العرب من تلك الحضارة (الغربية). وهو موقف يرفض التعالي والغطرسة وفرض ما يفيد. من الحضارة الوافدة عنوة، لكنه يتقبله متى امتزج في الحضارة القائمة وأصبح من عناصرها. وبهذا الاسلوب، يحتفظ العربي بهويته الثقافية ويستفيد من إيجابيات الحضارات الأخرى في آن واحد» (قاموس الادب العربي الحديث، القاهرة: دار الشروق، 2007، ص. 612).

ooo

ومرّت سبع سنوات، وعادت الباخرة.

من هذا الشاب الأنيق السمهريّ القامة، المرفوع الرأس، المتألق الوجه، الذي يهبط سلم الباخرة قفزاً؟ هو والله إسماعيل بعينه. أستغفر الله! هو الدكتور إسماعيل، المتخصص في طب العيون، والذي شهدت له جامعات إنجلترا بالتفوق النادر، والبراعة الفذّة، كان أستاذه يمزح معه ويقول له:

ـ أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمصت فيك يا مستر إسماعيل. إن بلادك في حاجة إليك، فهي بلد العميان.

رأى فيه دراية كأنها ملهمة، وصفاء هو سليل نضج أجيال طويلة، ورشاقة أصابع هي وريثة الأيدي التي نحتت من الحجر الصلد دمى تكاد تحيا.

أقبل يا إسماعيل فإنا إليك مشتاقون. لم نرك منذ سبع سنوات مرّت كأنها دهور. كانت رسائلك المتوالية، ثم المتراخية، لا تنفع في إرواء غلتنا. أقبل إلينا قدوم العافية والغيث. وخذ مكانك في الأسرة فستراها كالآلة وقفت بل صدئت لأن محركها قد انتزع منها. آه! كم بذلت هذه الأسرة لك. فهل تدري؟ لم ينم إسماعيل ليلة الوصول إلا غراراً. قفز إلى ظهر الباخرة مع الفجر يريد ألّا يفوته أول ما يبدو من شاطئ الإسكندرية. لا يرى شيئاً على الأفق، ولكن خياشيمه تتشمم في النسيم رائحة لم يألفها من قبل. أول من لقيه من وطنه مخلوق الكون كله وطنه. طائر أبيض، منفرد يحوّم حول السفينة، طليق متعال، نظيف، وحيد. لماذا تتعمد البواخر كل هذا التلكؤ عند الوصول، وما كان أسرعها عند الفراق؟ إنها تتهادى بدلال العودة، فما لها وللركاب وما يشعرون. كتم إسماعيل عن أهله موعد الباخرة حتى لا يكلّف أباه الشيخ مشقة السفر للإسكندرية. في عزمه أن يبرق إليهم بموعد وصول قطاره للقاهرة. هذا هو الفنار المتمنطق، وهذا هو الشاطئ الأصفر يكاد يكون في مستوى الماء. أنت يا مصر راحة ممدودة إلى البحر لا تفخر إلا بانبساطها، ليس أمامك حواجز من شعاب خائنة، ولا على شاطئك جبال تصدّ. أنت دار كل ما فيها يوحي بالأمان... ها هو أول قارب يظهر، فيه شيخ قد وخط الشيب لحيته، مقوّس الظهر، أقعى كالقرد في مقدم قاربه يصطاد. جلبابه الأزرق، أو الذي كان أزرق، ممزق مدقع. وقعت نظرة إسماعيل على سيدة مصرية وقفت بجواره، فرآها مطلة على الصياد، مغرورقة عيناها بالدموع وسمعها تتمتم:

ـ مصر! مصر!

كيف ينتبه لها الصياد وهو لم ينتبه للباخرة كلها. مثلها كثيرات داخلات خارجات تكاد تصدم قاربه، ولكن هيهات لها أن تصدم عالمه المقفل، عالم يجري على وتيرة واحدة متكررة يوماً بعد يوم. همّ إسماعيل بأن ينادي هذا الشيخ ويلقي عليه السلام، أو يلوّح له بمنديل. كيف تسقط المقاييس وينهزم المنطق في مثل تلك اللحظات التي تتأجج فيها العواطف، وتصفو القلوب!

ورن جرس إيذاناً بموت الباخرة، فأصبحت جثتها فريسة لجيش من النمل البشري يهاجمها. جنود وضباط، وإخواننا المحتلون ولو أنهم أخلاط مطربشون، وحمالون وصيارفة وزوّار. ثم اندلق الزحام والتدافع، وتعالت النداءات، وكثر العناق والتقبيل، وإسماعيل وسط التيار، غير مغمور، يلتقط بينهم كل ما يصل إليه، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة مطمئنة. له أذن فارزة واعية، ونظرة حيّة يقظة تريد أن ترى كل شيء، وتفهم كل شيء. إذا دققت النظر إليه وجدت تكورات وجهه قد زالت وشُدّ شدقاه في أخدودين. كانت شفتاه مرتخيتين، قلما تنطبقان، أما الآن فقد ضمهما عزم ووثوق. يجتاز الجمرك. وفي العربة يستمع لوقع عجلاتها بين الأسفلت والبلاط، فيذكره تنافر النغم وتناوبه بيوم السفر. كم يبدو له هذا اليوم متردياً في هوّة من ماض بعيد. بعيد كالحلم... كيف تقوى ذكرى هذا اليوم على البقاء بعد سبع سنوات قضاها في إنجلترا قلبت حياته رأساً على عقب. كان عفّاً

فنوى، صاحياً فسكر، راقص الفتيات وفسق. هذا الهبوط يكافئه صعود لا يقل عنه جدّة وطرافة. تعلم كيف يتذوق جمال الطبيعة، ويتمتع بغروب الشمس ـ كأن لم يكن في وطنه غروب لا يقل جمالاً ـ ويلتذّ بلسعة برد الشمال.

إن لم يكن له في هذه الفترة سوى «ماري» زميلته في الدراسة لكفى بها في نسيان ماضيه. لقد أخذ هذا الفتى الشرقي الأسمر بلبها فآثرته واحتضنته. عندما وهبته نفسها، كانت هي التي فضّت براءته العذراء. أخرجته من الوخم والخمول إلى النشاط والوثوق. فتحت له آفاقاً يجهلها من الجمال: في الفن، في الموسيقى، في الطبيعة، بل في الروح الإنسانية أيضاً.

قال لها يوماً:

ـ سأستريح عندما أضع لحياتي برنامجاً أسير عليه.

فضحكت وأجابت:

ـ يا عزيزي إسماعيل. الحياة ليست برنامجاً ثابتاً، بل مجادلة متجددة.

يقول لها: «تعالي نجلس» فتقول له: «قم نسر» يكلمها عن الزواج، فتكلمه عن الحب. يحدثها عن المستقبل فتحدثه عن حاضر اللحظة. كان من قبل يبحث دائماً خارج نفسه عن شيء يتمسك به ويستند إليه: دينه وعبادته، وتربيته وأصولها، هي منه مشجب يعلق عليه معطفه الثمين. أما هي فكانت تقول له: «إن من يلجأ إلى المشجب، يظلُّ طول عمره أسيراً بجانبه يحرس

معطفه. يجب أن يكون مشجبك في نفسك». إن أخشى ما تخشاه هي: القيود، وأخشى ما يخشاه هو: الحرية. كانت هبتها له في مبدأ الأمر محلّ حيرته، فكانت حيرته محلّ سخريتها. كان يتجافى الناس ويقدّر احتمالات ودهم، ويهتم كيف يكون حكمهم عليه، وإذا لقي من تريحه المجامة لا يجد بأساً في مجاملته، وقلبه غير مشارك. التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منه ظافراً أو خاسراً. أما هي فتهيم بالناس جميعاً، ولا تهتم بهم جميعاً. التعارف عندها لقاء، والود متروك للمستقبل، ومع تساوي ودّها للناس جميعاً، كانت بتّارة في إقصاء الضعيف، والسخيف، والمتعالم، الرذيل، والحزين، والمنافق. فلمّا تخلصت من هذ الأوشاب أصبحت لا ينجذب إليها إلّا من تطمئن لصحبتهم.

رأته يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه، ويخص بعطفه من يلحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والعقول، وما أكثرهم في أوروبا، يجلس صامتاً ينصت لشكواهم. وكان أكبر كرم منه أن يماشي منطقه منطقهم المريض. لحظته «ماري» وحلقة المرضى والمهزومين تطبق عليه يتشبثون به، كل يطلبه لنفسه، فأقدمت وأيقظته بعنف:

ـ أنت لست المسيح ابن مريم! «من طلب أخلاق الملائكة غلبته أخلاق البهائم!» و«الإحسان أن تبدأ بنفسك». هؤلاء الناس غرقى يبحثون عن يد تُمد إليهم، فإذا وجدوها أغرقوها معهم! إن هذه المواطف الشرقية مرذولة مكروهة، لأنها غير عملية

وغير منتجة. وإذا جردت من النفع لم يبق إلّا اتصافها بالضعف والهوان. إنما هذه العواطف قوتها في الكتمان لا في البوح!.

كانت روحه تتأوه وتتلوّى تحت ضربات معولها، كان يشعر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حيّة يتغذى منها إذ توصله بمن حوله. واستيقظ في يوم فإذا روحه خراب، لم يبق فيها حجر على حجر. بدا له الدين خرافة لم تخترع إلّا لحكم الجماهير، والنفس البشرية لا تجد قوتها ومن ثمّ سعادتها إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها، أما الاندماج فضعف ونقمة.

لم تقو أعصابه على تحمل هذا التّيه الذي وجد نفسه غريقاً وحيداً في خلائه، فمرض وانقطع عن الدراسة، وافترسه نوع من القلق والحيرة، بل بدت في نظرته أحياناً لمحات من الخوف والذعر.

وكانت «ماري» هي التي أنقذته. أخذته في رحلة إلى الريف بإسكتلندة، يجولان بالنهار مشياً أو على الدراجة بين الحقول، أو يصطادان السمك، وبالليل تذيقه من متع الحبّ أشكالاً وألواناً. من حسن حظه أنه استطاع أن يجتاز هذه المحنة التي يتردى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب في أوروبا، وخلص منها بنفس جديدة مستقرة، ثابتة واثقة. إن طرحت الاعتقاد في الدين، فإنها استبدلت إيماناً أشد وأقوى بالعلم، لا يفكر في جمال الجنة ونعيمها، بل في بهاء الطبيعة وأسرارها. ولعلّ أكبر دليل على شفائه أنه بدأ يتخلص من سيطرة «ماري» عليه. أصبح لا يجلس

بين يديها جلسة المريد أمام القطب، بل جلسة الزميل إلى زميله. لم يدهش، ولم يتألم كثيراً. عندما رآها تبتعد عنه وتنصرف إلى زميل من جنسها ولونها. إنها ككل فنان يمل عالمه حين يتم. شفي إسماعيل ففقد كل سحره، أصبح كغيره ممن تعرفهم، فلتجرب إذاً صديقها الجديد... على أن إسماعيل لم يقو على مغادرة إنجلترا دون أن يسعى إلى لقائها لآخر مرة. دعاها فلم ترفض، وجاءته. ولم يسأل نفسه أعلى علم من صديقها الجديد أم على غفلة منه؟ ووهبت له نفسها مرة أخرى، فهذه العلاقة ليست عندها بذات بال ولا خطر. كانت ضمتها له نوعاً من المصافحة وسلام الوداع.

وهتفت به وهي تنصرف على دراجتها:

ـ آمل أن أراك في مصر يوماً من الأيام. ومن يدري؟ فإلى اللقاء إذاً، ولا أقول وداعاً.

نساء العصر الحديث! كم ذا يواجهن الاحتمالات بقلوب ثابتة، شجرة الحياة أمامهن مثقلة بالثمر منوعته. لهن شهية مفتوحة، فلم التأسي والبكاء على ثمرة والشجرة مفعمة؟

والظاهرة العجيبة التي لا أستطيع تفسيرها أن إسماعيل أفاق من حبه لـ«ماري» فوجد نفسه فريسة حب جديد. ألأن القلب لا يعيش خالياً؟ أم أن «ماري» هي التي نبهت غافلاً في قلبه فاستيقظ وانتعش؟ كان إسماعيل لا يشعر بمصر إلّا شعوراً مبهماً، هو كذرة الرمل اندمجت في الرمال واندست بينها، فلا تميز

منها، ولو أنها مع ذلك منفصلة عن كل ذرة أخرى. أما الآن فقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة في سلسلة طويلة تشده وتربطه ربطاً إلى وطنه. في ذهنه مصر عروس الغابة التي لمستها ساحرة خبيثة بعصاها فنامت، عليها الحليّ و«دواق» ليلة الدخلة. لا رعى الله عيناً لم تر جمالها ولا أنفاً لا يشم عطرها! متى تستيقظ؟ متى؟ وكلما قوي حبه لمصر زاد ضجره من المصريين. ولكنهم أهله وعشيرته والذنب ليس ذنبهم، هم ضحية الجهل والفقر والمرض والظلم الطويل المزمن. إنه حدّق في الموت مراراً، وجس المجذوم، واقترب فمه من فم المحموم. ترى هل ينكص الآن عن لمس هذه الكتلة البشرية التي لحمه من لحمها ودمه من دمها؟ قد عاهد نفسه في حبه لمصر أن لا يرى منكراً إلّا دفعه. علمته «ماري» كيف يستقل بنفسه، وهيهات لهم بعد ذلك أن يجرعوه خرافاتهم وأوهامهم وعاداتهم. ليس عبثاً أن عاش في أوروبا وصلى معها للعلم ومنطقه. علم أن سيكون بينه وبين من يحتك بهم نضال طويل، ولكن شبابه هوّن عليه القتال ومتاعبه، بل كان يتشوّق إلى المعركة الأولى، وسرح ذهنه فإذا هو كاتب في الصحف، أو خطيب في أحد المجتمعات يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته.

وتحرك القطار بإسماعيل ولم يرسل برقيته. لا يدري لماذا ضعف عن لقائهم بالمحطة وسط الضجيج والضوضاء وعلى أعين الناس، وربكة المتاع. إنه يود أن يلقى أعزاءه في دارهم، وعلى نجوة من الغرباء. ولم يقدر وقع المفاجأة على أبيه وأمه العجوز.

ذكرهما فوجف قلبه. هل يستطيع أن يؤدي لهما بعض ما هو مدين به؟ إنه قادم مزوّد بنفس السلاح الذي أراده له أبوه، وسيشق لنفسه بهذا السلاح طريقه إلى أول الصفوف، وسيعرض عن خدمة الحكومة ويفتح عيادة في أرقى أحياء القاهرة، وسيدهش القاهريين أولاً ثم المصريين جميعاً بما أتقنه من فن واكتسبه من خبرة. فإذا تدفق عليه المال أعفى أباه الشيخ من العمل، واشترى له أرضاً في بلدهم ليعيش مستريحاً. ثم وجم إسماعيل، لقد تذكر أنه لم يأت معه من أوروبا بهدية لأسرته، وسرّى عنه إذ قال لنفسه:

ـ وماذا في أوروبا كلها يصلح لأبي وأمي؟

وفاطمة النبوية؟ ذكراها تثير في نفسه بعض الاضطراب، لم يزل مرتبطاً بوعده، وقد عاد حرًا، فلا عذرَ له إذا اعتذر. هذه مسألة معقدة فلنتركها للمستقبل.

وأطلّ من النافذة فرأى أمامه ريفاً يجري كأنما اكتسحته عاصفة من الرمل فهو مهدّم معفر متخرب. الباعة على المحطات في ثياب ممزقة تلهث كالحيوان المطارد وتتصبب عرقاً.

ولما سارت العربة من المحطة، ودخلت شارع الخليج الضيق الذي لا يتسع لمرور الترام، كان أبشع ما يتصوره أهون مما رآه: قذارة وذباب، وفقر وخراب، فانقبضت نفسه، وركبه الوجوم والأسى، وزاد لهيب الثورة في قرارة نفسه، وزاد التحفز.

ووقف أمام البيت، وتناول مطرقته، وتركها تسقط، فاختلطت دقتها بدقات قلبه. سمع صوتاً رقيقاً ينادي بلهجة نساء القاهرة:

ـ مين؟

ـ أنا إسماعيل! افتحي يا فاطمة!

يا إسماعيل. ما أقساك! وما أجهل الشباب!

كادت أمه يغمى عليها، وانعقد لسانها وهي تضمه وتقبل وجهه ويديه، تشهق وتبكي. يا الله! كم شاخت وتهدلت وضعف صوتها وبصرها! إن الغائب في وهم. يتوقع أن يعود لأحبابه فيجدهم كما تركهم منذ سنوات. صوت يهمس في قلبه:

ـ ليست لها من الشخصية نصيب! ليست إلا كتلة من طيبة سلبية.

وجاءه أبوه تفيض على وجهه ابتسامة هادئة. اشتعل شيبه وإن لم تنحن قامته، في عينيه نظرة مشوبة من إعياء وصبر، من راحة ضمير وشعور بالحمل الثقيل. سيعلم إسماعيل فيما بعد أن الأزمة كوته بنارها فانتكست أموره، ومع ذلك لم يتأخر في يوم ما عن موعد إيداع النقود بالبنك لابنه. لم يذكر لإسماعيل في اسكتلندة مع رفيقته يأكل البفتيك، وأبوه قعيد داره، عشاؤه طعمية أو فجل.

لإسماعيل نظرة من طرف عينيه تطوف في الدار، فإذا هي أضيق وأشد ظلمة مما كان يذكر. أما يزال ضوؤهم من مصباح البترول؟ قطع الأثاث بالية متناثرة تبدو ـ رغم مر السنين وطول

الصحبة ـ كأنها مهاجرة في دار غربة. ولماذا هم على البلاط؟ وأين البساط؟

هذه أم محمد ترتبك كعادتها بين الأطباق والحلل، وهي تزغرد، فيزجرها ويقول لها:

ـ بس بلاش خوته يا وليه اعقلي.

ولكن أين فاطمة النبوية؟ أقبلت فإذا أمامه فتاة في شرخ الصبا، ضفيرتاها وأساورها الزجاجية الرخيصة، وحركاتها وكل ما فيها وما عليها يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف. هل هذه هي الفتاة التي سيتزوجها؟ علم منذ اللحظة أنه سيخون وعده وينكث عهده. وما لها معصوبة العينين؟ فهي ترفع ذقنها لتستطيع أن ترى وجهه. لم يدعها الرمد منذ سافر، وساء حالها يوماً بعد يوم.

وأعد العشاء وجلسوا، ولعلهم جلسوا من أجله حول مائدة لهم من الخشب الأبيض. لم يأكل أحد. لم يأكلوا هم من حدة الفرح، ولم يأكل هو من صدمة اليقظة. اعترف لي إسماعيل فيما بعد بأنه حتى في اللحظة التي كان يجب أن تشغله سعادة العودة إلى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد، لم يملك نفسه عن التساؤل: كيف يستطيع أن يعيش بينهم؟ وكيف سيجد راحته في هذه الدار؟

وأعد الفراش، وأبى الشيخ رجب إلا الانصراف إلى غرفته ليترك ابنه يستريح من عناء السفر. وهذه أمه تجذب نفسها جذباً وتهم بتركه، ولكنها تشير إلى فاطمة وتقول:

ـ تعالي يا فاطمة قبل أن تنامي أقطر لك في عينيك.

ورأى إسماعيل أمه وفي يدها زجاجة صغيرة، وترقد فاطمة على الأرض وتضع رأسها على ركبة الأم، فتسكب من الزجاجة في عينيها سائلاً تتأوه منه فاطمة وتتألم.

سألها إسماعيل:

ـ ما هذا يا أمي؟

ـ هذا زيت قنديل أم هاشم. تعودت أن أقطر لها منه كل مساء.

لقد جاءنا به صديقك الشيخ درديري. إنه يذكرك ويتشوق إليك. هل تذكره؟ أم تراك نسيته؟

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع. أليس من العجيب أنه وهو طبيب عيون، يشاهد أول ليلة من عودته، بأية وسيلة تداوى بعض العيون الرمد في وطنه؟...

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فأوقفها، وحل رباطها وفحص عينيها، فوجد رمداً قد أتلف الجفنين وأضر بالمقلة، فلو وجد العلاج المهدئ المسكن لتماثلت للشفاء، ولكنها تسوء بالزيت الحار والكاوي.

فصرخ في أمه بصوت يكاد يمزق حلقه:

ـ حرام عليك الأذية. حرام عليك، أنت مؤمنة تصلين، فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام؟

وصمتت أمه وانعقد لسانها، تحاول أن تتمتم ولا تبين.

ورأى إسماعيل شبح أبيه على الباب، في جلباب أبيض قصير، وعلى رأسه طاقية تحتها وجه مربد. هل يتوقع قلبه الحنون مكروهاً؟ ماذا؟ لعل في تصرفات إسماعيل وحركاته ونظراته ما أيقظ في نفسه منذ اللحظة الأولى بعض الريبة. ما هذا الصراخ؟ ماذا حدث؟

ونطقت أمه أخيراً تستعيذ بالله وتقول له:

ـ اسم الله عليك يا إسماعيل يا ابني. ربنا يكملك بعقلك، هذا غير الدوا والأجزا. هذا ليس إلا من بركة أم هاشم.

وإسماعيل كثور هائج لوحت له بغلالة حمراء.

ـ أهي دي أم هاشم بتاعتكم هي الي ح تجيب للبنت العمى. سترون كيف أداويها فتنال على يدي أنا الشفاء الذي لم تجده عند الست أم هاشم.

ـ يا ابني ده ناس كتير بيتباركوا بزيت قنديل أم العواجز. جربوه وربنا شفاهم عليه. إحنا طول عمرنا جاعلين تكالنا على الله وعلى أم هاشم. ده سره باتع.

ـ أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت.

هبط على الدار صمت مقبض كصمت القبور. في هذا البيت تعيش قراءة القرآن والأوراد، وصدى الأذان، كأنها جميعاً استيقظت وانتبهت، ثم أطرقت وانطفأت، وحل محلها ظلام

ورهبة... لا عيش لها مع هذه الروح الغريبة التي جاءت لهم من وراء البحار.

وسمع صوت أبيه كأنما يصل إليه من مكان سحيق:

ـ ماذا تقول؟ هل هذا كل ما تعلمته في بلاد بره؟ كل ما كسبناه منك أن تعود إلينا كافراً؟

كل ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدل على أن المرض العصبي القديم قد عاوده فجأة، وانفجر بشدة جديدة. فقد وعيه وشعر بحلقه يجف، وبصدره يشتعل، وبرأسه يموج في عالم غير هذا العالم. شب على قدميه واقفاً. لا شك أن في نظرته ما يخيف، فقد تضاءلت الأم أمامه وابتعد الأب عن طريقه. هجم إسماعيل على أمه يحاول أن ينتزع منها الزجاجة فتشبثت بها لحظة، ثم تركتها له، فأخذها من يدها بشدة وعنف، وبحركة سريعة طوح بها من النافذة.

وكان صوت تحطمها في الطريق دوي القنبلة الأولى في المعركة.

ووقف إسماعيل حائراً لحظة، له نظرة تجوب ما حوله وتتنقل من وجه أمه وفاطمة إلى وجه أبيه. وجد إشفاقاً وعطفاً، ولم يجد تسامحاً وفهماً. ربما استشف في نظرتهم بعض الرعب فتزايد هياجاً، وانطلق إلى الباب، وفي طريقه وجد عصا أبيه فأخذها ثم هرب من الدار جرياً، لن ينكص عن أن يطعن الجهل والخرافة في الصميم طعنة نجلاء ـ ولو فقد روحه.

وجاء رمضان فما خطر له أن يصوم. ابتدأ يطيل وقفته في الميدان ويتدبر: في الجوّ، في الهواء، في المخلوقات، في الجمادات كلها شيء جديد لم يكن فيها من قبل. كأن الوجود خلع ثوبه القديم واكتسى جديداً. علا الكون جو هدنة بعد قتال عنيف.

يحدّث إسماعيل نفسه: لماذا خاب؟ لقد عاد من أوروبا بجعبة كبيرة محشوّة بالعلم، عندما يتطلع فيها الآن يجدها فارغة، ليس لديها على سؤاله جواب. هي أمامه خرساء ضئيلة، ومع خفتها فقد رآها ثقلت في يده فجأة.

ودار بعينيه في الميدان. وتريثت نظرته على الجموع فحتمّلتها. وابتدأ يبتسم لبعض النكات والضحكات التي تصل إلى سمعه، فتذكره هي والنداءات التي يسمعها بأيام صباه... ما يظن أن هناك شعباً كالمصريين حافظ على طابعه وميزته، رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين. «ابن البلد» يمر أمامه كأنه خارج من صفحات (الجبرتي). اطمأنت نفس إسماعيل وهو يشعر أن تحت أقدامه أرضاً صلبة. ليس أمامه جموع من أشخاص فرادى، بل شعب يربطه رباط واحد: هو نوع من الإيمان، ثمرة مصاحبة الزمان، والنضج الطويل على ناره. وعندئذ بدأت تنطق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل. هنا وصول فيه طمأنينة وسكينة، والسلاح مغمد. وهناك نشاط في قلق وحيرة، وجلاد لا

يزال على أشده، والسلاح مسنون. ولم المقارنة؟ إن المحب لا يقيس ولا يقارن. وإذا دخلت المقارنة من الباب ولى الحب من النافذة.

وحلت ليلة القدر... فانتبه لها إسماعيل. ففي قلبه لذكراها حنان غريب. ربي على إجلالها والإيمان بفضائلها، ومنزلتها بين الليالي. لا يشعر في ليلة أخرى ـ حتى ولا ليالي العيد ـ بمثل ما يشعر به فيها من خشوع وقنوت لله. هي في ذهنه غرة بيضاء وسط سواد الليالي. كم من مرة رفع فيها بصره إلى السماء فبهره من النجوم جمال لا يراها تنطق به بقية العام.

وغاب لحظة في أفكاره، فإذا به ينتبه على صوت شهيق وزفير عميق يجوبان الميدان. هذا هو سيدي المتريس ولا ريب. رفع بصره. القبة في غمرة من ضوء يتأرجح يطوّف بها. انتفض إسماعيل من رأسه إلى أخمص قدميه. أين أنت أيها النور الذي غبت عني دهراً؟ مرحباً بك! لقد زالت الغشاوة التي كانت ترين على قلبي وعيني، وفهمت الآن ما كان خافياً علي. لا علم بلا إيمان. إنها لم تكن تؤمن بي، إنما إيمانها ببركتك أنت وكرمك ومنّك. ببركتك أنت يا أم هاشم.

ودخل إسماعيل المقام مطأطئ الرأس فأبصره يرقص عليه ضوء خمسين شمعة زينت جوانبه، والشيخ درديري يتناولها واحدة واحدة من فتاة طويلة القامة سمراء اللون، جعدة الشعر. هي نعيمة، قد زال انطباق شفتيها وبدت لها سنأن وإن تكلمت فصف

من أسنان بيض كاللؤلؤ. تكفي النظرة إليها أن تنسي وجود كل قبيح.

لقد صبرت وآمنت. فتاب الله عليها، وجاءت تفي بنذرها بعد سبع سنوات. لم تقنط، ولم تثر، ولم تفقد الأمل في كرم الله.

أما هو الشاب المتعلم، الذكي المثقف، فقد تكبر وثار، وتهجم وهجم، وتعالى فسقط.

ورفع إسماعيل بصره فإذا القنديل في مكانه يضيء كالعين المطمئنة التي رأت، وأدركت، واستقرت. خيل إليه أن القنديل، وهو يضيء، يومئ إليه ويبتسم.

وجاءه الشيخ درديري يسأله عن صحته وأخباره. فيميل عليه إسماعيل يقول:

ـ هذه ليلة مباركة يا شيخ درديري، أعطني شيئاً من زيت القنديل.

ـ والله انت بختك كويس... دي ليلة القدر؟ وليلة الحضرة كمان.

وخرج إسماعيل من الجامع وبيده الزجاجة وهو يقول في نفسه للميدان وأهله:

ـ تعالوا جميعاً إليّ! فيكم من آذاني، ومن كذب عليّ، ومن غشني، ولكني رغم هذا لا يزال في قلبي مكان لقذارتكم وجهلكم

وانحطاطكم، فأنتم مني وأنا منكم. أنا ابن هذا الحي، أنا ابن هذا الميدان. لقد جار عليكم الزمان، وكلما جار واستبد، كان إعزازي لكم أقوى وأشد.

ودخل الدار ونادى فاطمة:

ـ تعالي يا فاطمة! لا تيأسي من الشفاء. لقد جئتك ببركة أم هاشم ستجلي عنك الداء، وتزيح الأذى، وترد إليك بصرك فإذا هو جديد...

وشد ضفيرتها واستمر يقول:

ـ وفوق ذلك سأعلمك كيف تأكلين وتشربين، وكيف تجلسين وتلبسين، سأجعلك من بني آدم.

وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان. لم ييأس عندما وجد الداء متشبثاً قديماً. يجادله بعناد ولا يتزحزح. ثابر واستمر. ولاحت بارقة الأمل، ففاطمة تتقدم للشفاء على يديه يوماً بعد يوم وإذا بها تكسب في آخر العلاج ما تأخرته في مبدئه، فهي تقفز في أدواره الأخيرة قفزاً.

ولما رآها ذات يوم أمامه سليمة في عافية، فتش في ذهنه وقلبه عن الدهشة التي كان يخشاها، فلم يجدها.

وافتتح إسماعيل لنفسه عيادة في حي البغالة بجوار التلال، في منزل يصلح لكل شيء إلا لاستقبال مرضى العيون. الزيارة

بقرش واحد لا يزيد. ليس من زبائنه متأنقون ومتأنقات، بل كلهم فقراء، حفاة وحافيات. والغريب أن شهرته استقرت في القرى المجاورة للقاهرة دون القاهرة ذاتها، فاكتظت داره بالفلاحين والفلاحات، يجيئون بهدايا من البيض والعسل والبط والدجاج.

كم من عملية شاقة نجحت على يديه، بوسائل لو رآها طبيب أوروبا لشهق عجباً. استمسك من علمه بروحه وأساسه، وترك التدجيل والمبالغة في الآلات والوسائل. اعتمد على الله ثم على علمه ويديه فبارك الله له في علمه وفي يديه. ما ابتغى الثروة ولا بناء العمارات وشراء الأطيان. وإنما قصد أن ينال مرضاه الفقراء شفاءهم على يديه.

وتزوج إسماعيل من فاطمة وأنسلها خمسة بنين وست بنات.

وكان آخر أيامه ضخم الجثة، أكرش، أكولاً نهماً، كثير الضحك والمزاح والمرح، ملابسه مهملة، تتبعثر على أكمامه وبنطلونه آثار رماد سجائره التي لا ينفك يشعل جديدة من منتهية. وأصيب بالربو فاحتقن وجهه، وتنزى العرق على جبينه، وانقلب تنفسه إلى نوع من الموسيقى، وأصبح من يشاهده لا يدري أهو متعب أم متسريح. فلما احتبست ضحكاته في حلقه، اجتمعت في عينيه (فليس هناك عيون أقوى على التعبير من عيون المصدورين)، يكاد يقفز منها إليك شيطان لعوب، كلها حب وفهم، فيها خبث وطيبة، وتسامح وإعزاز. وكأنها تقول لك قبل كل شيء:

ـ ليس كل ما في الوجود أنا وأنت، هناك جمال وأسرار ومتعة وبهاء. السعيد من أحسها، فعليك بها عليك...

إلى الآن يذكره أهل حي السيدة بالجميل والخير، ثم يسألون الله له المغفرة. مم؟ لم يفض إليّ أحد بشيء، وذلك من فرط إعزازهم له. غير أنني فهمت من اللحظات والابتسامات أن عمي ظلّ طول عمره يحب النساء، كأن حبه لهن مظهر من تفانيه وحبه للناس جميعاً.

رحمه الله...

الحي اللاتيني

سهيل إدريس (1954)

سهيل إدريس (1925 ـ 2008)، هو أديب وصحافي لبناني، ومؤسس مجلة الآداب. ولد في بيروت وتعلم في كلية فاروق الشرعية. عمل في الصحافة اللبنانية منذ عام 1939 ثم سافر إلى باريس وحصل عام 1952 على دكتوراه في الآداب من «جامعة باريس». هناك تعرّف إدريس على الوجودية وفكر جان بول سارتر، وأغرم به، وترجم سيرته الذاتية، كما ترجم «الطاعون» لألبير كامو و«هيروشيما حبيبي» لمارغريت دوراس. أنشأ مجلة «الآداب» عام 1953 التي دخل من خلالها معارك فكرية وشعرية عديدة، وما تزال مجلته هذه تصدر إلى اليوم تحت إدارة ابنه سماح إدريس. وفي عام 1956 أسس بالاشتراك مع نزار قباني «دار الآداب» للنشر، التي أصبحت إحدى أشهر دور النشر العربية، لاسيما في مجال الرواية، حيث أخرجت من مطابعها روايات لكبار الكتاب العرب. أحد أشهر الذين طبعت لهم «الآداب» نجيب محفوظ، الذي لجأ إليها حين منع جمال

عبد الناصر «أولاد حارتنا» في مصر. فأخذها سهيل إدريس، وطبعها في داره. وبدأ يرسلها إلى «دار مدبولي» في مصر ويتم توزيعها هناك. وهكذا كان لسهيل إدريس فضل تعريف القارئ العربي بالرائعة الروائية «أولاد حارتنا» التي طبعت عدة مرات. وسهيل إدريس من «مؤسسي اتحاد الكتاب اللبنانيين»، مع المفكر الكبير قسطنطين زريق، وأدونيس، ومنير بعلبكي. وانتخب أميناً عاماً له لعدة دورات.

أعماله:

- أشواق ـ قصص 1947
- نيران وثلوج ـ قصص 1948
- كلهن نساء ـ قصص 1949
- أقاصيص أولى ـ قصص 1977
- أقاصيص ثانية ـ قصص 1977
- الدمع المر ـ قصص 1956
- رحماك يا دمشق ـ قصص 1965
- العراء ـ قصص 1977
- الشهداء ـ مسرحية 1965
- زهرة من دم ـ مسرحية 1969
- الحي اللاتيني ـ رواية 1953

- الخندق الغميق ـ رواية 1958
- أصابعنا التي تحترق ـ رواية 1962
- سراب ـ «رواية» نشرت مسلسلة في جريدة بيروت المساء عام 1948
- في معترك القومية والحرية ـ دراسة
- مواقف وقضايا أدبية ـ دراسة
- القصة في لبنان ـ دراسة
- دروب الحرية ـ ترجمة
- الغثيان ـ ترجمة
- سيرتي الذاتية لسارتر ـ ترجمة
- الطاعون ـ لألبير كامو
- هيروشيما حبيبي ـ ترجمة لمارغريت دورا
- ذكريات الأدب والحب ـ سيرة ذاتية 2005
- المنهل ـ «معجم» فرنسي عربي بالاشتراك مع الدكتور جبور عبد النور.

لقد ترجم سهيل إدريس أكثر من عشرين كتاباً بين دراسة ورواية وقصة ومسرحية.

الرواية:

ما صنع شهرة سهيل إدريس، هي رواياته الشهيرة التي كتبها من وحي مرحلته الباريسية بشكل أساسي وتلك الصدمة الثقافية التي عاشها هناك. «الحي اللاتيني» و«الخندق العميق»، وله مجموعات قصصية عدة. وهي تطرح قضية التصادم الحضاري وقضية الفرد والحرية والاستقلال عن ربقة التقاليد المحلية وتأثير الثقافة الغربية على الشباب العربي.

○○○

واتجه همّه مع صديقيه إلى البحث عن غرف متواضعة تتناسب والمبلغ الذي كان كلٌّ منهم قد قدّره لسكناه. وكان على يقين من أنه سيشمر ذلك الشهر بالضيق المالي، بسبب ما بذّره في شراء الكتب وارتياد المقاهي، وبسبب هذه الآلاف الخمسة من الفرنكات التي سرقتها ليليان.

إنها لم تخابره في اليوم التالي، ولن تخابره بعد أبداً، بل لعلها لن تظهر في الحي اللاتيني بعد ذلك إطلاقاً. وإنه لمن حظه أن بقية ماله كانت مخبأة في محفظة ثانية، وإلا...

ومضى مع صبحي وعدنان إلى تلك المكاتب الكثيرة المنتشرة في كل حي من أحياء باريس، والتي تتولى إرشاد الراغبين في استئجار الغرف والبيوت أو تأجيرها. وانطلقوا يبحثون عن هذه العناوين التي نقلوها من سجلات تلك المكاتب، فضربوا في كل حي من أحياء باريس، بل تجاوزوها إلى الضواحي في القطارات،

ولكنهم لم يرتاحوا إلى أيٍّ من تلك الغرف التي شاهدوها. فبعضها كانت تعوزها النظافة، وبعظها النور، وبعضها الدفء. وكان عدنان يقول إنه يريد غرفةً تُشعره بصداقتها، ويردف موضحاً:

ـ أريد أن أحسّ بهذه الصميمة التي توفر لي الثقة، والطمأنينة. فأنصرف إلى عملي راضياً.

ويعلّق صبحي على هذا القول:

ـ أعتقد أنّ هذه «الصميمية» إحساس تخلقه العادة، ولا ينشأ من الوهلة الأولى. وهذا يعني انك ستشعر بالصميمية في أية غرفة تسكن فيها ردحاً من الزمن.

فلم يقتنع عدنان ولم يشأ أن يمضي في النقاش. وما لبثوا أن طرقوا باب منزل في ضاحية «فانسين» أخذوا عنوانه من أحد المكاتب، ففتحت لهم سيدة لا يبدو أنها تتعدى الثلاثين من عمرها. ممشوقة الجسم، سمراء الوجه، ذات سحر وإغراء. وقد استقبلتهم باسمةً مرحّبة وأدخلتهم غرفة مؤثثة نظيفة. طلبت ثمانية آلاف فرنك أجراً شهرياً لها. ولكن الثمن بدا له ولصبحي غالياً جداً، فظهرت على وجهيهما سيماء الخيبة. وأدهشهما أن يسمعا صديقهما عدنان يخاطب السيدة ببرودته المعهودة، فيعلن أنه يقبل بدفع هذا الأجر وأنه عائدٌ صباح اليوم التالي ليقيم في الغرفة. ثم يسارع فيدفع ألفي فرنك عربوناً يربط به صاحبة الغرفة خشية أن تؤجر سواه!.

وما كادوا يغادرون المنزل، حتى التفت عدنان إليهما قائلاً وهو يبتسم:

ـ تريدان الحق؟ لقد شعرت بصميمية هذه الغرفة سريعاً!

فابتدره صبحي:

ـ بأسرع مما يُتوقع! لقد شعرتُ بصميميتها حتى قبل أن تراها... أقصد منذ أن رأيت السيدة الفاضلة!.

وانفجروا ثلاثتهم ضاحكين.

أما هو وصبحي فقد أنفقا أربعة أيام كاملة من غير أن يهتديا إلى غرفتين يرضيان عنها. ثم استقرا في فندقين متواضعين متجاورين من فنادق الحي اللاتيني يشرفان على «البانتيون» مقبرة العظماء الفرنسيين. وقد اختار صبحي غرفة من غرف الطابق الثالث في «فندق البانتيون» بأجرة ستة آلاف فرنك في الشهر. واختار هو غرفة من الطابق السادس الأخير في فندق «ليفران زوم» بأجرة خمسة آلاف. والحق أنهما آثرا النزول في هذين الفندقين لقربهما من السوربون وكلية الحقوق اللتين كانا يستطيعان بلوغهما بأقل من خمس دقائق.

ثم اتجه همهما إلى تسجيل اسميهما في أحد مطاعم الطلاب التي تقدم الطعام بمبلغ يسير لا يُرهق جيوب هؤلاء الذين لا ينعمون إلا بمبلغ محدود من المال. يُرسل إليهم من بلادهم. منحة من الحكومة أو مساعدة من الأهل لاستكمال

أسباب تحصيلهم العالي. وقد وفقا إلى الالتحاق بمطعم «لوي لوغران» التابع للمعهد الذي يحمل الاسم نفسه. والقائم قبالة السوربون في شارع «سان جاك». وكانا يقصدان هذا المطعم مرتين كل يوم. يتناولان فيه الغداء والعشاء. أما فطور الصباح. فكانا يتناولانه في غرفتيهما بالفندق حليباً وشاياً وزبدة يبتاعانها من حانوت قريب. وإذ أجريا حساب نفقاتهما الشهرية، تبين لهما أن بوسعهما أن يخصصا ليوم الأحد من كل أسبوع نفقة استثنائية يصرفان بعضها في مطعم عام، وبعضها الآخر في مشاهدة مسرحية من هذه المسرحيات الكثيرة التي تعرضها المسارح الباريسية، والتي أشعرتهما بأن بلادهما، بل الشرق كله، محرومٌ من نعمة عظيمة ينعم بها الناس في الغرب وينشدونها ويحرصون عليها، حتى لقد غدت حاجةً حيوية من حاجات معيشتهم. وقد استشعرا أول الأمر راحة واطمئناناً لحياتهما تلك، تجري في نظام مرسوم، بين الجامعة والمطعم والفندق والمسرح والكتاب. ولكن لم يكد يمضي أسبوع واحدٌ على إقامتهما في الفندقين حتى أحسّا بالضجر، وبأنهما قد أحاطا نفسيهما بسياج قاس توشك حدوده الضيِّقة ان تخنقهما. على أن أحدهما لم يجرؤ على مكاشفة صاحبه بهذا الشعور، كأنما كان يرى في ذلك اعترافاً بضعف، أو انتقاصاً من قدْر نفسه.

وقد أدرك هو أن صديقه صبحي كان أسرع منه في العمل للتحرر من هذا الشعور وتحطيم هذه القيود. فقد ألفاه يخرج

على النظام الذي شارك في رسم خطوطه. فيمتنع أحياناً عن الذهاب إلى مطعم «لوي لوغران»، ويقصد المسرح في غير يوم الأحد، ويرتاد السينما متى عنّ له ذلك. ولم يكن صبحي ليخفي عنه شيئاً من أمره، بل هو قد روى له أنه تعرّف إلى فتاة من طالبات الحقوق بدأت تشغل فكره، وأنها قد صحبته إلى أحد المسارح، وأن علاقته بها تتوثق يوماً بعد يوم.

إن صبحي لعلى حق. إن هذه الصداقة التي تجمع بينهما لن تبلغ إلا أن تُبعدهما عن خوض الحياة ما عمقت واشتدت أواصرها. لكأنها ملاذٌ لهما من هذه الخيبة التي أصاباها، أو خيّل إليهما أنهما أصاباها في الأسابيع الأولى من وصولهما إلى باريس، أو هي ملجأ من ذلك التهيّب الذي يمسكهما دون الانطلاق في غمار هذه الحياة المتحررة التي لم يتعوداها. لقد أدرك صبحي دون ريب أثر هذه الصداقة في ما هما مقبلان عليه. فاهتدى بغريزته إلى وجوب التحلل منها، أو إكسابها معنى آخر، غير هذا المعنى الذي يضيّق الأفق ويزيد في الإحساس بالوحدة. ولِمَ تراه يتردد في ذلك. وقد رأى صديقهما عدنان يختطّ لنفسه طريقاً حرّاً هو وحده الكفيل بأن ينمّي شعوره بذاته، ويبلور إحساسه بشخصه؟ فلينطلق هو أيضاً. صبحي، في مثل هذا الطريق، ولعله لن يندم في سلوكه.

كان يدير هذا كله في ذهنه، وهو يلاحظ أن صبحي يبتعد عنه رويداً رويداً. ولقد استشعر لذلك بعض الضيق والأسى، ولكنه

لم يشأ أن ينحي باللائمة على صديقه أنه قد خلّفه وحده، وتوقف عند معنى الصداقة يستكشف صفحاتها. أيكون من الصداقة أن يخلقا حلبةً محدودة تأسن فيها العواطف فيما هي تعمق؟ أليس كذلك هو شأن الصداقة هناك، في بلاده، في الشرق، في بلاد العرب؟ ما قيمة تلك الصداقات بين الفتيان والشبان؟ ما قيمة تلك الصداقات بين الفتيان والشابات في الشرق؟ إن تلك الصداقات لا تقوم حقاً على أساس من المحبة الخالصة. وإنما تقوم على أساسٍ من الحرمان المتبادل... الحرمان المنتصب حداً فاصلاً بين المرأة والرجل، بين الذكر والأنثى. هكذا ينشأ الرباط بين شاب وشاب. وبين فتاة وفتاة، يُفرغُ كلٌ على رفيقه مدخور قلبه من العاطفة المكبوته. فيحسب أنها الصداقة الخالصة وهي في الحق حب منحرف. ويكفي أن تتجه هذه العاطفة وجهتها الصحيحة فيجتمع الشاب بالفتاة. وتجتمع الفتاة بالشاب، حتى تنهار تلك الصداقات، أو تتزعزع أواصرها على الأقل... وما أكثر ما ينسي الشاب صديقه في الشرق يوم أن تدخل في حياته فتاة، وما أكثر ما تنسى الفتاة صديقتها، يوم أن يدخل في حياتها شاب.

أما هنا، في الغرب، فإن الصداقة... لا، ليس لك أن تحكم بعد، فأنت لم تعرف صداقات الغربيين في ما بينهم. على أن بوسعك أن توقن بأن الصداقة ليست حباً مكبوتاً أصابه الانحراف.

وإذاً فان صبحي لعلى حق. فليس هو بَعدُ في الشرق ليرتضي

التآكل بلهيب الصداقة المخنوقة. فليخرج إلى الدنيا الواسعة، ولينس هذا الإخفاق الذي أصابه، فقد لا يكون إلا أثراً من الشعور بالنقص ورثه لاوعيه من غريزة راسبة في أعماقه. أفيكون إدراكك هذا كافياً لأن يدفعك إلى إقامة الصداقة بينك وبين صبحي، بينك وبين أي إنسان، على قاعدة أخرى؟ ذلك هو الامتحان الذي هو مدعوّ إلى دخوله الآن.

وحين طرق عليه صبحي الباب في اليوم التالي، كانت بصحبته فتاة، زميلته في معهد الحقوق. وكانت فتاة فارعة القامة. سوداء الشعر، مستطيلة الوجه، تشع قسماتها ذكاءً وجمالاً. وكان صبحي يحدثها وهو يفيض سعادة وفرحة. وحين غادراه، كان على يقين من أن صداقته لصبحي ستصبح صداقة صحيحة خالصة يوم يلتقي مثله بفتاة تُطلق مشاعره الحبيبة من عقالها وتردّ أحاسيسه إلى موضعها الطبيعي من قلبه وروحه.

ولكن يقيناً، لم تكن هذه الفتاة التي التقى بها بعد أيام في باحة الفندق، هي الفتاة التي كان ينشد لقاءها.

لقد غادر غرفته في الطابق السادس صباح ذلك اليوم، وهو يُحسّ رضىً وطلاقة، فاذا ببضع رسائل تطلّ من علبة غرفته في لوحة الفندق، فاستخفّت به الفرحة: رسائل من أهله وأصدقائه. جلس في الباحة ليفضّها ويقرأها.

وكان يقلبُ بين يديه رسالةً عليها طابع بريد الوطن ويتساءل عمّن يكون مرسلها، حين أحسّ بجسم غير بعيد عنه، على

المقعد الطويل ورفع بصره ينظر، وسرعان ما خفق صدره. كانت ذات عينين تتفجّران حيوية، وجرأة، وتحدّياً. عينان يحسب أن عينيه لن تقاوما نظرتهما طويلاً إذا شاءتا أن تقابلاهما. وكان شعرها كستنائي اللون قصيراً، يُكسب الوجه مزيداً من نضارة الشباب.

ولم تُتح له أن يمضي في تأملها، إذ مدّت ذراعها نحو الطاولة التي كان يجلس اليها، فتناولت جريدة، وقالت في لا مبالاة:

ـ هل هي جريدة اليوم؟

فالتفت حوله يتبيّن الشخص الذي خالها توجّه إليه السؤال، فلم يَرَ أحداً. وعراه الاضطراب. إنها إذاً تسألني أنا بالذات. ونظر إليها، فإذا هي ترنو إليه.

وحين مدّ رأسه قليلاً ليقرأ تاريخ الجريدة، شعر بالدم يبعث الحرارة في وجنتيه وجبينه، فيحس لها بمثل وخز الإبر. وتأتّى له أن يقول متلعثماً:

ـ نعم تاريخ اليوم.

ورفع نظره، فجمدت عيناه في عينيها الرانيتين. يا إلهي... ما أعمقهما! ما أبعد قرارهما! أيّ إشماع تبعثان؟!

ـ اعذرني... شغلتك عن رسائلك.

وفوجئ مرة أخرى بهذه العبارة. كان قد استعاد بعض

طمأنينته، حاسباً أنها سألته سؤالها وانتهى الأمر. ولكن يبدو أنها مصرّةٌ على أن تحدّثني. وأحس بمثل الرضى، على الرغم من أن الاضطراب لم يزايله. وقال متشجعاً:

ـ أبداً...

قالت، وطيف بسمة يراود شفتيها الريانتين:

ـ لا بدّ أنها رسائل من أعزاء...

فسارع يقول:

ـ وكيف عرفتِ ذلك؟

ـ لقد رأيتك شديد الاستغراق فيها...

ـ إن إحداها من أمي، وبعضها من أصدقاء.

ـ أعتذر لك ثانية يا سيدي. إن فضولي قد يزعجك!

ـ على الإطلاق يا آنسة. بل هو دليل ذوق مرهف!

وأدرك سريعاً أنه قال العبارة الأخيرة دون أن يعنيها أو يفكر فيها. وظلت مع ذلك تحدثه وتهتم لحديثه. وأخبرته أنها تنتظر صديقة لها تنزل الفندق نفسه. وأحس بارتياح لحديثها، فهو بسيط طبيعيّ لا تصنُّع فيه، وشعر كأنما يعرفها منذ أشهر، حتى أنه لم يجد أي تردد أو هيبة في أن يدعوها إلى تناول فنجان «قهوة تركية» في غرفته، ريثما تأتي صديقتها. فترددت قليلاً ثم قالت:

ـ إنك تغريني كثيراً بهذه «القهوة التركية». فقد ذقتها مرة في مطعم مراكشي، وما زال طعمها تحت لساني!

وضحكت وهي تنهض، فرقي بها السلّم. وراحت تجيل نظرها في أرجاء غرفته، إذ بلغاها، ثم اتجهت إلى الرفّ الذي جعل عليه مكتبته، فأخذت تقرأ عناوين الكتب، بينما انصرف هو إلى إعداد القهوة. ورآها بعد لحظات تتحوّل عن الكتب فتقف أمام مصباح كهربائي صغير كان قد جلبه معه من بيروت، وهو يمثّل إعرابيّين صنُعا من مادة معجنّة مطليّة، وهما جالسان في زيهما البدوي يدخنان «النارجيلة»... وظلت لحظات وهي تتأملهما بإعجاب، ثم انصرفت عنهما ودنت منه، وإذا بها تلقي يدها على كتفه بلامبالاة طبيعية وتقول بلهجة تودّد:

ـ أحسب أنك لن تبخل عليّ بهما... كهدية!

وعجب هو نفسه كيف تأتّى له الجواب بسرعة:

ـ أعتذر عن الاضطرار لرفض طلبك يا آنسة... إنني لا أستطيع أن أهديهما إلى أحد.

ـ ولماذا؟ أهما هدية لك؟

ـ لا... وإنما...

وكاد يُعجزه الجواب، ولكن التماعةً ذهنية أنقذته:

ـ وإنما لا أودّ أن يفارقاني. إنهما يحرسانني.

فانفجرت ضاحكة:

ـ وممّ يحرسانك؟

قال بسرعة وهو يحدد فيها بصره:

ـ من الأخطار الكثيرة التي تحيط بي هنا... في باريس.

ورآها فجأة تشتد دنواً منه، وقد غاضت عن وجهه البسمة، وتقف قبالته تحدق فيه.

ـ وأنا... أتعتبرني من هذه الأخطار؟

وتعذرت عليه الإجابة هذه المرة، فهو لا يدري أية قوة جذبته في عينيها الممغنطتين. وظل لحظات ينظر فيهما، في أعماقهما البعيدة، ثم خانته قوة البصر فأغضى. واستطاع أخيراً أن يتمتم:

ـ إن في عينيك وحدهما كل أخطار الدنيا!

فضحكت، وزاد دنوها منه، أو كأنما هي ضحكت لتبرر دنوها وشعر بصدره يخفق إذ أحس بشفتيها تلامسان خديه ملامسة رقيقة، وهما تهمسان:

ـ وشفتاي؟

فلم يجب. لأن شفتيها كانتا للتقبيل، للارتشاف، لإسالة الرضاب في الفم. كانتا لتعانق الجسم الذي يحملهما، ليُصهر في الذراعين، ليحرق في الصدر الأنفاس، ثم ليجزّد من ثيابه قطعة

قطعة، وليلقى على السرير، بل ليستلقي هو نفسه، نابضاً ناضراً يضج بالنداء. وشفتاها تلك، كانتا بعد، لتُخمدا اللهاث الراعش، في غمرة اللقاء الأعظم.

ولكن... ما بالها، هي مارغريت، تسارع بالنهوض ثائرة الأعصاب متقلصة القسمات، تتمتم كلمات لا تبين. ولا تنم إلا عن غضب مكبوت وحنق تحاول جهدها أن تكظمه؟ وإذ اقترب هو منها ممتلئاً عجباً، نفرت تقول:

ـ ابتعد عني... كلكم هكذا أنتم الرجال... أنانية قذرة!

وارتدت ثيابها على عجل، ثم فتحت باب غرفته، وخلّفته في عَجبٍ يكاد يتحول إلى بلاهة.

والحق لم تكن له في ذلك حيلة، فقد كان في عينيها الزرقاوين صفاءٌ لم يعهده في عينين قبلهما. وكان يحس، وهو ينظر فيهما، أن نظراته تستحم في مياههما الدافئة، بالرغم من أنها نظرات خاطفة هاربة، بل من أجل ذلك بالذات. وقد شعر بهذا منذ التقت عيناه بعيني جانين للمرة الأولى، فكان كل همه بعدُ أن يجتذب هذا النظر الهارب، ويثبته في نظره، حتى يتاح له أن يسبر أغواره. وكأن الفتاة إذا أغضت قد أدركت ذلك، فصرفت عنه هذا النظر الذي يودّ أن يحتفظ بأسراره.

وكان قد التقى بها بعد ظهر اليوم التالي، في إحدى المكتبات بشارع «مسيو لوبرنس» وكانت واقفة تقلب كتاباً في ركنٍ

من المكتبة، فعرفها من شعرها الأشقر، وحار طويلاً كيف يكلمها. ثم أخذ ينتقل ببطء حذاء الرفوف حتى بلغ موقفها، فقال بلهجة خفيفة:

ـ كيف حال الجارة التي ما كادت تعلن اسمها حتى ندمت؟

فالتفتت مبغوتة، ولكنها سرعان ما أجالت بسمتها الحلوة على شفتيها إذ عرفته وقالت:

ـ أهذا أنت أيضاً؟

فأجابها بسؤال سريع:

ـ أتكون مفاجأة غير سارة؟

فترددت لحظة قبل أن تقول:

ـ لم أقل ذاك... وإنما...

وتعلق بشفتيها، ينتظر أن تتما، ولكنهما ظلتا مطبقتين، بل هي قد زمتهما بقسوة، كأنما كانت تخشى أن تفلت منهما كلمةٌ لا تريد أن تنطق بها. على أن وجهها ما لبث أن احتقن بالدم، وسألته بلهجة حرصت على أن تكون مكبوتة، كأنما كانت تخاف أن يتنبه إليهما أحد:

ـ ولكن لماذا؟... لماذا؟...

وتوقفت هنيهة، ثم قذفتة:

ـ ما عساك تريد مني؟ لماذا تلاحقني منذ يومين؟

وخشي أن يشعر من هذه العبارة المفاجئة بانخذال في

ساقيه، فاعتمد بكفه على منضدة قريبة رُصت عليها الكتب، ثم أحس بقدميه تستديران، وانفتل بجسمة على مهل، ومضى فغادر المكتبة ملتاث المشاعر.

ولكنه لم يلبث طويلاً حتى سمع صوتها خلفه، يناديه باسمه، وحين التفت، كانت قد بلغته، فإذا هي تقول له بصوت ينبض بالندم والأسى:

ـ أعذرني، أرجوك. لقد أسأت معك الأدب، وقابلت لطفك بجفاء، أرجو أن تغفره لي.

فاستشمر من ذلك الخجل، وهمّ بأن يعتذر لها، كأنما كان هو المخطئ، أو كأن مسلكه هو الذي دفعها إلى هذا الخطأ، على الأقل، وآثر أن يلزم الصمت فترة من الزمن، يفكر فيها بالخطوة التالية. ولا ريب في إنها عللت صمته على غير حقيقته، إذ قالت:

ـ أراك لا تنطق بشيء، كأنما يعز عليك أن تسامحني..

فسارع يجيب:

ـ العفو يا آنسة جانين. إنك لم تسيئي إليّ حتى تستميحيني العذر! وأدرك أنه يجاملها، ويتجاهل حقيقة كانت ظاهرة كالنهار. ولكن هذا كان دأبه: لقد كان يشق عليه أن يشعر امرؤ أمامه بالحَرَج، فإذا قصارى همه أن يتيح لهذا المرء الفرار من ذلك الحَرَج واستعادة العزة النفسية. وهو مدرك أن هذا ضعفٌ فيه، إذ هو يفوت عليه كل فرصة بإعلان النصر. وأياً ما كان، فإنه هنا لا يبغي الانتصار على هذه الفتاة. إنه يريد أن تبقى إلى

جانبه فترة من زمان، أن تُثمره بجنانها، أن تبث في نفسه الباردة بعضاً من دفء. فأحْرِ بك إذاً أن تتغاضى وتتجاهل وترتد إليها شاكراً أن تتيح لك فرصة أخرى للحديث.

وارتد إليها وقال بلهفة:

ـ أتقبلين أن تتناولي معي الشاي في مقهى قريب؟

فعاودها التردد، ثم حال ترددها إلى ارتباك. وفهم أنها قرأت على وجهه سيماء الخيبة، فشاءت أن توفرها عليه، ولو بتكلف، إذ قالت:

ـ لا مانع عندي من ذلك، على ألا نبقى وقتاً طويلاً.

وحين دخلا مقهى «لاسورس» وجلس قبالتها، ونظر في عينيها الزرقاوين الصافيتين، شعر بأنه مقبلٌ مع «جانين مونترو» على عهد جديد من حياته، لا يدري من أمره إلا أنه جديد.

ولم يخب ظنه بصفاء نفسها ونقاء سريرتها. لقد حدثها بكل بساطة، واستمع إليها تتكلم مع سجية نفسها، من غير تكلف.

وقد أدهشه أن تكون جانين، تلك الفتاة المترددة الحائرة المتقبلة التي عرفها من قبل، هي جانين نفسها، هذه الهادئة الرقيقة الواثقة من نفسها. لكأن ذاتها الأولى كانت مصطنعة، وكأن هذه هي ذاتها الطبيعية.

وعجبت بعض العجب حين أخبرها أنه من الشرق العربي، وقال موضحة:

ـ لقد أنبأتني تقاطيع وجهك أنك لست أوروبياً، ولكني لم أحدس بأنك عربي.

ثم روت له بأنها قرأت بعض ما كتبه أدباء فرنسيون زاروا الشرق، كـ لامارتين وغوتييه وفلوبير. وأضافت ان ما كتبه فلوبير خاصة قد أثار حنينها يوماً إلى زيارة الشرق ورؤية الجمل والنخيل والصحراء.

وكان هو شديد الرغبة في أن تحدثه عن نفسها، وقد خُيل اليه لحظة انه شديد الانانية بأن يَدَعها هذا الوقت الطويل تتحدث عن بلاده دون أن يسألها عن شؤونها. ثم لاحظ انها تحاول دائماً أن تتفادى التحدث عن نفسها، وتصرف الكلام كل مرة إلى وجهة أخرى، كأنها تحرص على أن تستبعده أبداً عن كل ما يمسها ولا تود أن تتيح له فرجة ينفذ منها إلى حياتها الخاصة.

كان يدير هذا كله في فكره حين سألته:

ـ أنت إذاً شرقي؟

ـ نعم من لبنان، وأنتِ، هل أنتِ باريسية؟

ـ لا، إنني من الإلزاس.

وأغضت جانين مونترو، فأدرك هو أن نظراته المحددة قد آذتها. وتلبث قليلاً ثم سألها:

ـ وهل أنت في باريس منذ وقت طويل؟

فبدا عليها الضيق. لا شك في أن إلحاحي قد أزعجها. ينبغي لي أن أتحفظ بعد. وفاجأته بنظراتها الصافية مرة أخرى. ثم قالت بلهجة بدت فيها سرعة واضحة أنها قدمت حديثاً إلى باريس من قرية صغيرة بالإلزاس، لتتخصص في الصحافة بإحدى مدارس العاصمة، وأنها وصلت منذ أيام فقط، واستأجرت غرفة في ذلك الفندق ريثما تبحث عن أسرة فرنسية تنزل لديها.

ذلك هو كل ما قالته له. ولم يخف عليه أنها كانت تقصد إلى الاقتضاب قصداً، كأنما كانت تحذره من أن يلتمس المزيد، وعلى قدر ارتياحه إلى أنها طالبة، مثله، شقّ عليه أنها الآن تبحث عن غرفة لدى أسرة فرنسية. إنها إذاً ستغادر الفندق عما قليل، وتخلفه مرة أخرى في تلك الوحدة التي حسب أن شبحها المخيف بدأ ينجاب عنه رويداً.

وهمّ بأن يعبّر لها عن هذا الشعور، ولكنه استدرك نفسه، إذ تذكر احتراسها، وبخلها، وحذرها. وآثر أن يَدَع ذلك الأمر إلى المقادير. ثم انثنى يتحدث عن نفسه وعمّا لقيه من صعوبات في أيامه الأولى بالعاصمة، وذكر دروسه وكتبه والرسالة التي يُعدّها في الشعر العربي الحديث. وقد كان يوغل في الحديث كلما آنس في عيني جانين اهتماماً بأخباره وعناية بالاصغاء له.

وكان يحسب أنه نجح في هدم ذلك الجدار من التهيب والحيطة الذي كان قائماً بينهما، إذ فاجأته بالنهوض، وبأن عليها أن تتركه في الحال. يا آلهي! أي مزاج هذا! أيكون هذا

التردد والقلق والحيرة هي طبيعتها الحق؟ أو يكون حديثها الأول إليه، وإرهاف سمعها إلى حديثه، واهتمامها بأنبائه، أيكون ذلك كله هو التصنع الذي ليس في طبعها؟

على أنه لم يسقط صريعاً تحت هذه الضربة الجديدة. فهو قد اعتاد في هذين اليومين هذه الكلمات المفاجئة، وقد بات في طوقه أن يحتاط لها ويواجهها، أو يداريها على الأقل. فلتبقَ إذاً جالساً، وإن نهضت جانين، ولتأخذ بالريث والإبطاء، ولتقلْ لها بتؤدة:

ـ ولكن علامَ العجلة، يا آنسة جانين؟

فأجابته:

ـ إنه موعدٌ مع زميلة لي من طالبات الصحافة.

ثم مدت يدها تودّ مصافحته، فأدرك أن البطء لا يجدي أمام هذه الكف المبسوطة، ولم يسعه إلا أن ينهض، فيقول لها، وهو يتناول كفها:

ـ حسناً... ولكن متى نلتقي مرةً أخرى؟

فاشتد بريق عينيها، وإن كان صفاؤهما قد اغتلم، وأجابت في ضيق، وبعد تردّد طويل لم تنجح في إخفائه أو تبريره:

ـ أخشى ألا يكون ذلك في استطاعتي مرةً أخرى.

وفي اللحظة نفسها، سحبت كفّها من كفّه، كأنها شعرت بأن أمد التقائهما كان أطول مما قدرت، ثم ابتسمت له بسمةً أدرك

سريعاً أنها كانت تنبض بالتكلف، إذ استعاد طيف تلك البسمة السمحة العذبة التي كانت ترتسم على شفتيها من قبل.

وانطلقت جانين مونترو عجلى، دون أن تَعِدَه بلقاء.

أية فتاة هي!! إنك ما تني تتساءل! ولِمَ تراك تُغرق بعلامات الاستفهام هذه، شخصها هي! لِمَ لا ترتد ببصرك إلى نفسك أنت؟ أنا أحسب أنك وقعت في خطأ لك معهود. مرةً أخرى، قذفتَ نفسك كلها في الحلبة، إذ حدثتها عن ذاتك ذلك الحديث الطويل فلم تستبق منها غامضاً يُغري. ما أسهلك من كتاب، وما أيسر قراءتك! تقول إنك صادق مخلص، وإنها سجية نفسك؟ انظر إذاً إلى العاقبة! أم تُراك قد زللت اذ أنبأتها بأنك من الشرق العربي! ما يمنعها من أن تُجيل في خاطرها كل ما سمعت أو قرأتْ، عن مساوئ العربي، فتحسبها ممثلةً فيك! ألا ترى الغربي يخاف دائماً هذا الشرقي، هذا العربي، النابع من رمال الصحراء، العائش في حضارات القرون الوسطى؟ وفلوبير نفسه، هذا الذي حنت، هي جانين، إلى الشرق بتأثير ما كتبه، ألم يكن حريصاً على تصوير نواحي التأخر والحيوانية في حياة أهل الشرق؟

وتناول فنجان الشاي، فاذا هو فارغ. ومع ذلك فقد وضع حافته بين شفتيه. وعلى صفحة الفنجان، خُيل اليه أنه يرى دنيا تنبسط أمامه... جمالٌ وصحراء... صحراء شاسعة، شاسعة، دون بلوغ واحتها سرابٌ كثير...

ثم غادرت «جانين» باريس إلى مقاطعة «الهوت سافوي» لقضاء أسبوع الميلاد لدى خالةٍ لها هناك، كانت تحبّها وتُلح عليها منذ غادرت قريتها بالإلزاس، في أن تزورها وتنزل ضيفة عندها لبضعة أيام. ولم يدر لماذا لم يثنها عن عزمها على القيام بتلك الرحلة، بل هو قد عَجِبَ أنه شجعُها عليها، لغير ما سبب واضح.

ولكنه أدرك، منذ اليوم الأول الذي غابت فيه جانين، أنه إنما حثها على الذهاب ليمتحن نفسه. وسرعان ما شعر بأنه امتحان عسيرٌ لحبه. كان يُحس كيفما توجه أنه ضائع. كأنما فَقَد قسماً من ذاته راح يبحث عنه دون ما جدوى. وكان العيش في وقائع ذينك الأسبوعين عزاءه الوحيد من حاضره هذا القاحل. ووعى من غير مشقة أن هذه الفتاة الفرنسية قد استأثرت بوجوده طوال تلك الأيام،.نجحت في أن تسلخه عن عالمه، وإن لم يكن راضياً عنه.

واستشعر ببعض الخجل إذ ذكر أصدقاءه، هؤلاء الذين كان أقرب إليهم من ظلهم، لأيام خلت. حتى صبحي، هذا الذي ينزل في الفندق المجاور، لم يره منذ عشرة أيام. وفؤاد... وشعر بالدم في وجنتيه خجلاً. أي حب هذا! بل أية فتاة، هي جانين، لتصرفه عن ذلك الصديق الذي استأثر بفكره وعاطفته جميعاً، منذ أيام قليلة؟ لقد كان يُحس بغموض أن صديقه يشق له آفاقاً جديدة من وجوده كان يغشاها ضباب كثيف. أيكون هذا وهماً استحوذ

عليه، إذ ما كادت جانين تدخل حياته، حتي غابت تلك الآفاق، أم أن حبه هذا، طواه على ذاته من جديد، وأغلق عليه جوانب القوقعة؟

على أن أشق إحساس عليه وآلمه، إنما أورثته في نفسه تلك الرسالة التي وصلته من أمه بعد ظهر ذلك اليوم بالذات. لقد شعر بشبه ذُعر، حين فض الرسالة فوقع نظره على خط أمه. لا، هو لم ينس أنها كانت مريضة، وأنه عزم على أن يبرق لذويه مستفسراً يوم التقى بجانين ذلك اللقاء، ولكنه جعل يرجئ الكتابة إليها يوماً بعد يوم، ثم ها قد فاته أن يكتب، وها هي ذي أمه الحبيبة عاتبة أن كلمة منه لم تبلغهم ذلك الأسبوع، بينما كانوا يترقبون أن يوافيهم، بدلاً من رسالته الأسبوعية المعتادة، باثنتين.

وجلس يكتب إلى أمه، ينتابه شعور كشعور المذنب يسعى إلى تبرير نفسه. حدثها عما خلفه نبأ العملية التي أجريت لها من ضيق وقلق في نفسه، ثم روى أنه كان ينوي الإبراق لهم، ولكنه آثر العدول، توفيراً للنفقات... وأدرك أن كذبته هذه هي التي أشمرته بهذا الوخز، كمثل وخز الإبر، في جبينه وجلدة رأسه. وتساءل في همٌ زافر: لِمَ يكذب، ولِمَ لا يصارح أمه، وهي خير من يحبه، بحقيقة الأمر؟ لِمَ لا يحدثها عن جانين، هذه التي تملأ الآن حياته بالسعادة؟

وابتسم في سخرية مريرة. أنى لأمه أن تقره على شيء من

هذا؟ وماذا عساه يفيد بعد من إطلاعها على ذلك الأمر؟ أما كان يعيش من بيته في جوّ خانق؟ أكان يستطيع أن يخفي على ذويه وعلى أمه خاصة، أي سر صغير؟ ألم تكن حياته نهباً مشاعاً لهم؟ أكان بوسعه أن يشعر بالاستقلال في حياته، وبالحرية في مسلكه؟ وهذا الفرار إلى باريس، سوق حياة خاصة يشعر أنها له. أنها حياة حميمة لا تعني أحداً سواه؟

ومضى في رسالته، وسالت تحت قلمه الكلمات: عملٌ مرهق، ومطالعة مستمرة، واستغراق في المراجع، ومناقشة للأساتذة في تفصيل موضوعات الأطروحة... وبعد ذلك، وعدٌ بالعودة إلى الرسالة الأسبوعية الممتادة، وسؤال عن أفراد الأسرة واحداً واحداً، وختامٌ من القبلات والأشواق.

وطوى الرسالة في زفرة، وأودعها في مغلف، وغادر الفندق. وفي مركز البريد، غير بعيد عن السوربون، التقى بصبحي فبادره صديقه بما لم يكن ينتظره منه. لم يعتب عليه صبحي، ولم يسأله عن غيابه ذلك الطويل، وإنما اجتزأ بالقول:

ـ رأيتك مرةً، وأنا في نافذة غرفتي بفندق البانتيون، خارجاً برفقة فتاة شقراء الشعر، فقلت في نفسي: «إن هناك من يشغله عنّا!» ولهذا قررنا، عدنان وأنا، أن نطلق لك الحرية كلها، وقلنا: «إن كان يبغي لقاءنا، فهو ساعٍ إلينا لا محالة!».

فلم يجد إلا أن يبتسم. وشعر أن بسمته لم تخْلُ من بلاهة فقال:

ـ لا أكتمك يا عزيزي إن هناك من يشغلني، وأنت، ما أنباء فتاتك السويدية، وزميلتك طالبة الحقوق؟

ـ أما السويدية فقد أصبحت من التاريخ القديم، ولست أدري إن هي عادت إلى بلادها أم لا... إن بلادها باردة جداً أيها العزيز!

فضحك هو بدوره، ثم سارع يسأله، ليوفر عليه الإيضاح:

ـ وأما الزميلة المحترمة؟

ـ ما زلت أتوكأ عليها في الطريق! وهذا لم يحل دون مغازلتي زميلة لها من كلية الطب!

وأردف صبحي وهو يقهقه:

ـ من يدري... فقد أصاب قريباً بصداع الملل، فتشفيني طالبةُ الطب!

وخرجا من مكتب البريد محبورين. على أنه شعر وهو يذكر كلام صديقه بامتعاض قليل نجح في إخفائه. لقد طفرت جانين فجأة إلى مخيلته، فآذاه أن يضعَهَا على صعيد واحد مع هاتيك الفتيات، وآذاه أيضاً أن يفكر أن بوسعه يوماً أن يقف من جانين هذا الموقف الذي يقفه صديقه من فتياته. أي فحش هذا وأي فجور!

ثم خشي أن يظلم صديقه بهذا الحكم. لعل الذنب ليس ذنبه.

أتكون هاتيك الفتيات مثل جانين؟ وبرِم مرة أخرى، أنه اضطر إلى مقارنتها بهنّ. وحزّره صديقه من اضطرابه إذ سأله:

ـ هل أنت عائد إلى فندقك؟ أما أنا فذاهب إلى «الكابولاد» للقاء بعض الأصدقاء، فهل ترافقني؟

ولم يكن يدري إلى أين ينبغي أن يذهب، ولكنه تذكر فجأة «فؤاد»، فسأله صديقه عنه:

ـ عجباً! لم أفطن إلا الآن إلى إننا لم نره في «لوي غران» منذ بضعة أيام...

وودع صبحي، دون أن يسأله شيئاً، واتجه إلى شارع «غي لوساك».

ولم يخنْه حدسه، فقد كان فؤاد في فراشه يشكو الضنك.

ورحب به صديقه الأثير بابتسامة شاحبة من أثر المرض، ودعاه إلى الجلوس. وقد وجد هو من الخارج والضيق في مواجهة صديقه بعد هذه الغيبة الطويلة أضعاف ما وجده في الكتابة إلى أمه. ولكنه إذ نظر برقة في عيني فؤاد، سقط هذا الضيق كله، وسُري عنه. فلم يتردد في أن يكاشفه بكل ما حدث له. ولم يشعر أنه يؤدي بذلك له حساباً، وإنما كان على يقين من أنه لن يجد أشد إخلاصاً له من فؤاد، وقال له في عبارة لمس فيها لهجة النبوءة:

ـ أراك تحبها حباً صادقاً، فلا تندم ولا تتردد. إن هذا الحب كفيل بأن يصهر النفس ويزيل عنها كثيراً من أدرانها... ومثل هذا كان حبي الأول...

وأيقظته عبارة فؤاد الأخيرة، فنظر إليه في تطلع ودهشة. عجباً! كيف لم يخطر له مرة أن يسأل صديقه عن شجونه الغرامية، كأنما أقرّ هو إذاً!.

وشاء أن يغادر غرفة صديقه بعد وقت قصير، حرصاً على راحته، ولكن «فؤاد» استبقاه وهو يقول له إن الضنك بدأ يولي عنه الآن وأضاف إلى ذلك:

ـ لا أدري سبب هذه الرغبة الشديدة في أن أروي لك بعض حكاياتي الغرامية! وقد شغفته ليلتذاك تلك الحكايات التي ظل صديقه يرويها له حتى ساعة متأخرة، وكان في ضميره، وهو يستمع إليها، شبه إيمان بأنه لا بُد سيفيد منها في ما هو مقبل عليه من أمر حبه. وأخذه العجب أن يكون فؤاد قد بلا، وهو في مثل سنه، هذه المحن الكثيرة التي واجهته بها الحياة، فغرق في الرذيلة إلى أعمق درك، وسما في الحب إلى أسمى مرتبة، وكان في الأمرين جميعاً واعياً تجربته أشدّ الوعي. ولولا أن لصديقه في نفسه منزلة لا يتطرق إليها ضعف النفوس، لأحس له بالغيرة بل بالحسد من أن يكون قد تزود من تجارب الحياة بما لم يتزوده هو، المتفوق عليه في حساب الرتب العلمية!.

وأدهشه في تلك اللحظة بالذات أن يقول فؤاد، وكأنما حدس بفكرته، وإن كان موقناً أنه لا يعنيه:

ـ إن الكتاب أعجز من الحياة في ميزان التجارب الإنسانية. وإن هذه السنوات الثلاث التي قضيتها هنا قد علمتني من شؤون

الوجود ما لم يعلمني إياه الأدب والفلسفة. ولكني واثق مع ذلك من أن تجاربي هذه هزيلة مضحكة إزاء تجارب الذين هُيِّئوا لمواجهة ألوف المحن والبلايا!

وألفى نفسه يسأل صديقه، بعد لحظات، سؤالاً حسبه محرجاً:

ـ ولكني لا أراك الآن في علاقة مع امرأة فهل يعني أنك رويتَ واكتفيت؟

فضحك فؤاد وأجاب:

ـ لن أروي من امرأة أبداً. إن حاجتي إليها لشديدة، كحاجتي إلى الكتاب سواء بسواء...

كف لحظة ثم أردف مستضحكاً:

ـ ثم ما يدريك أيها العزيز أنني لست الآن في علاقة مع امرأة؟ أم تراك تريدني أن أتباهى بالظهور معها، هنا وهناك، كما يفعل بعض الرقعاء من مواطنينا الكرام؟

ـ أوه... لو حضرتَ قبل أن تحضر بنصف ساعة، للقيت هنا «فرانسواز»... وأياً ما كان. فلا بد من أن أعرّفك بها يوماً... وأحسبها تعجبك!

فلم يتردد هو لحظة في أن يعقّب بقوله:

ـ ولا بد من أن أعرّفك أنا أيضاً بجانين يوم تعود من فرصتها ولا شك في أنها سترضيك!

وفهم أن صديقه يجامله حين قال له:

ـ لا أرتاب في ذلك، فأنا مؤمن بأن لك ذوقاً سليماً!

وسادت بينهما لحظة صمت، ما لبث فؤاد أن قطعها موضحاً:

ـ قلت إن حاجتي إلى المرأة شديدة. ولكن هذا لا يعني أنها لا تزال هي همّي الأول... لقد كانت كذلك يوم وصلت إلى باريس. أما الآن، فإن لي هموماً كثيرة أخرى. ليست المرأة إلا أحدها. ولست لأنكر أنها تعينني كثيراً على مواجهة سائر هذه الهموم. وأنا أعتقد على كل حال أن أحدنا لا يبلغ استغلال إمكانياته كلها، أو أكثرها، إلا إذا كُفيت حاجاته كلها أو أكثرها...

وتساءل فؤاد بعد ذلك في وضوح وإصرار:

ـ ألا تعتقد أن كثيرين من شبابنا العربي، هنا وفي الوطن، محرومون من استغلال أسمى إمكانياتهم لأن حاجاتهم في الحب والجنس غير مكفية؟

وبينا كان يومئ برأسه إيجاباً، وما كان له أن يفعل غير ذلك، أخذ صديقه يسعل، ثم اشتدت عليه نوبة السعال حتى تشنّج لها وجهه واحمرت عيناه، وحين انحسرت عنه قليلاً تمتم في مثل الاعتذار:

ـ ما زلت أحزم أمري على وجوب الإقلاع عن التدخين، أو الحد منه على الأقل، ولا سيما تدخين مثل هذه اللفائف الثقيلة «الفولواز». وما أشد حسدي لك أنك لا تدخن!

وكان هو قد نهض يُعدّ لصديقه فنجاناً من الزيزفون، ويقدمه إليه ساخناً يتصاعد منه البخار، وينصح له بأن يتناول معه قرصاً من الأسبرين.

وهدأ فؤاد بعد دقائق، وعاد إلى عينيه صفاؤهما، فاستأذنه بالذهاب ووعد بزيارته في اليوم التالي، متمنياً له ليلة شافية.

وإذ لفظته غرفة صديقه، واستقبله «غي لوساك» شعر بأن شيئاً كالعبء ينزاح عن كتفيه. ولا يدري أي إحساس هذا، ولكنه يدرك الآن فقط انه أحس به من قبل أيضاً، ولعله كان يشعر بأن هذا العبء يثقل على كتفيه كلما التقى بفؤاد، ثم ينزاح عنه كلما فارقه. لكأنها قطعة من وجود صديقه تنفصل عنه وتتجه إليه لتشعره بأن حياته ينبغي أن تضطلع بتبعة وتتحمل مسؤولية وتسمى إلى غاية. ذلك ما كان يحس به كلما اجتمع إلى فؤاد، أما الآن فها هو ذا يفارقه، فيعاوده الشعور بهذا العوم والطفو فوق أي ثقل. إنه يكاد يلمس بيديه هذا الفراغ الذي يستخف به، فإذا هو يمضي في طريقه خفيف الخطو، كأنما لا يحس الأرض تحت قدميه.

وكان يفكر بهذا حين شعر بأن قدميه، هاتين القدمين، تتسمّران حيث وطئتا. وإذ تنبّه إلى ذلك، ألفى نفسه واقفاً من فندقه في الممر الذي يفضي إلى غرفة جانين.

وخفق صدره، وانتابته رعشة، وانساق في الممر بشبه لا وعي، حتى إذا بلغ باب الغرفة الموصدة، وضع يده على المقبض

وحاول أن يفتله، فظل المقبض جامداً لا يلين. ومع ذلك، فقد خيّل إليه أن الباب يفتح. وأنه يدخل الغرفة، فتستقبله جانين بذراعين مفتوحتين، وتضمه إليها بشدة، ثم تدس رأسها في عنقه، فينبعث في أنفه عبير من شعرها خاطف يزيده لهفة إلى تشمم ذلك الشعر المسترسل الرقيق، ثم يسمع صوتها يهمس باسمه، فيتناول شفتيها، تينك اللتين همستا باسمه ويشعر بأن كيانه كله يتجمّع في شفتيه... وتمضي لحظات، يرى في أثنائها النعاس يهوّم على جفني جانين. فيرد على جسمها الغطاء، ويطفئ النور. ثم يخرج مغلقاً خلفه الباب.

وشعر بيده ما تزال على المقبض الذي لا يلين، فجذبه نحوه، كأنما ليستوثق من إغلاق الباب، ثم ينفتل فيجتاز الممر ثانية، ويدرك السلّم فيرقاه حذراً، يسترق الخطى استراقاً، كأنما يخشى أن يوقظ أحداً، أو أن يراه أحد.

هذه الغيبوبة التي شاء الاستغراق فيها لينسى التفكير بالغد وبالعودة، غده وغد جانين، وعودته القريبة إلى باطن الوطن لقضاء فصل الصيف، هذه الغيبوبة قتلتها رسالة أمه التي تلقّاها ذلك الصباح الربيعي المشرف.

وقد اعتصرت الرسالة قلبه، إذ حملت اليه نبأ حاول ذووه أسابيع أن يخفوه عنه. ولم تجد أمه أخيراً بداً من كشفه له. ذلك أنها ظلّت أياماً طويلة، بعد تلك العملية، وأصابع المرض تتوجها بالحمى. لقد التهب الجرح الذي شُق في بطنها، فراحت تعاني

منه ألواناً من الآلام أرمضت قواها وأوهنت عزيمتها، فشعرت أنها تشيخ في أسابيع.

وقد لاحظ أن الرسائل الأخيرة التي وردته، قد كتبها أخوه وكانت أمه تكتفي بتسجيل بضعة أسطر في طرف بعض الرسائل، معتذرة تارة بالعمل البيتي المنهك، واعدة تارةً أخرى بأن تكتب له مطولاً في الأسبوع التالي.

«لقد كان إخوتك يا ولدي يُصروّن على أن أحمّل رسائلهم إليك ولو عبارة واحدة تخطّها يدي، حتى لا تنتابك الظنون في صحتي، فكنت أخطّ هذه العبارة التافهة، والدمعة تكاد تطفر من عيني. ولكني بت لا أطيق هذا الصمت الكاذب. إنني مريضة جداً يا ولدي، وأنا أتألم أبداً، وأشعر بأن أيامي باتت معدودة. وكل ما أتمناه على الله أن يمدّ في حياتي إلى يوم تكتحل عيني برؤيتك. فهل سيطول مكوثك في البلد البعيد؟ رحماك يا ولدي. إنني أعيش على أمل عودتك القريبة».

ولم تمكنه الدموع التي ترقرقت في محجريه من متابعة الرسالة، فآثر أن يترقب حتى يُفرغ لوعته في عينيه، وحتى تفرغ عيناه عبراتهما.

وكان يتمتم باسم أمه في غصة. وفي تلك اللحظة بالذات صح عزمه على أن يضع حداً لتردده، ويسافر إلى الوطن في أقرب فرصة ممكنة، بعد شهرين، بل قبل ذلك على التدقيق.

ويعود إلى الرسالة، وقد هدأ بلباله. ولكن ما بال أمه تنسى مرضها وابتهالاتها إليه، لتعرض لذلك الموضوع:

«أخشى يا بنيّ، أن يصرفك الغرب عنا. وأخشى فوق ذلك أن تسحرك امرأة من هناك فتقع في شباكها، وتخيّب أمل أمك الصغيرة بك. إن «ناهدة» تنتظرك يا ولدي. أقرأ ذلك في عينيها كلما زارتنا، وأرى الحنين فيهما كلما جرى الحديث عنك، وإن كانت تمسك عن ذكرك، وأنت تعرف خجلها. ومع ذلك، فإن لم تكن راغباً في «ناهدة» فهناك «نعمت» و«ثريا» و«هدباء» ابنة خالتك. هناك كثيرات. عُدْ يا بني لأخطب لك أجمل فتاة هنا، وأشرفها، وأطهرها...»..

أيكون هذا هو حدس أمه الذي يعرفه؟ أتراها ترتاب بأن هناك علاقة تربطه بامرأة يعيش منذ حين في نعيم حبها؟ لقد كان يعجب دائماً لهذا الحسّ الذي كان يتيح لأمه أن تتنبأ بكثير من الشؤون الخفية التي تمسه وتمس إخوته. ولعل هذا هو الذي جعلهم يجدون صعوبة كبيرة في الكذب أو الرياء.

وانتفض الخوف، الذي كان قد أنامه، من التفكير بالزواج. كأنما الإشفاق على أمه من الخيبة التي تحدس بها، هو التبرير الصحيح... وتمثّلها أمامه، هي أمه تتحدث إليه. وقد علمت أنه يحب امرأة فرنسية ويفكر أحياناً بالزواج منها. واستوعب في لحظاتٍ جميع أفكارها وحركاتها، وحججها و...

وسمع دقاً على بابه، ثم أطلّ وجه تيريز:

ـ أأستطيع أن أدخل، فأنظف غرفة سيدي، أم أنتظر خروجه؟

ـ أنا خارج بعد دقائق يا تيريز.

ـ إذاً، فأنا داخلةٌ لأنظف غرفة الآنسة جانين.

وسرعان ما عاد إليه وجه أمه. في وجه تيريز هذه. التي أغلقت خلفها الباب. ورآها، هي تيريز، تستعيد حركات أمه وأفكارها وحججها، ولكن بالفرنسية أول الأمر، ثم اختلطت الكلمات باللغتين.

وأحس بقدميه تدفعانه إلى غرفة جانين، يريد أن يرى وجه تيريز، ثم يتخيل عليه طابع الأم. ودخل الغرفة، فأحس رائحة جانين. ومذاقها، وحبها. ورأى أن يقول شيئاً لتيريز:

ـ تيريز... كيف حال الأولاد؟

وانطلقت خادمة الفندق في محاضرتها. وكان يود إطالة التحديق في وجهها، ولكنها لم تكن تلتفت اليه إلا قليلاً. ولفت بصرَه بغتةً دفترٌ كثيف. موضوع على الطاولة الصغيرة بجانب السرير، فاقترب وتناوله وقرأ على الصفحة الأولى. بالفرنسية «مذكرات باريس» وفي الزاوية السفلى «جانين مونترو».

لا، ينبغي لك ألا تقرأ فيه. الصفحة الأخيرة، الصفحة الأخيرة فقط. ليس إلا الصفحة الأخيرة؟

وفتحه. «23 نيسان. صباحاً» تاريخ اليوم.

«كانت ليلتي هادئة النوم. أكاد الآن أعرف طريقي. ما كان لي بالأمس أن أحدثه ولو بغموض عن الغد. إنه لم يفكر به، وأعتقد أنه ليس مستعداً للتفكير به. لقد قال لي العبارة التي كنت أخشاها: «وأنا أيضاً. ينبغي ألا أكون في حياتك غير طيف عابر». استغفرته، ورجوته أن يسامحني. وأن ينسى الذي قلته له عن المستقبل. وقلت إنني سأحاول أنا أيضاً أن أنساه. هذا المستقبل، كما أحاول أن أنسى الماضي. أيكون هذا صحيحاً؟ لست أدري. ولكن يجب عليّ أن أحاول. من أجله هو، من أجل حبه. أصبحت أحب هذا الحب، وأحب نفسي التي تحبه. أحسب أني أعيش في أنانية لم أكن أعتقد أني أقدر عليها. قلت له مثل هذا تقريباً. ولماذا، في الحق، يعنيني ما سوف ينتهي إليه حبي؟ أليس هو حسبي وغايتي كلها؟ ألستُ به أعيش، ومنه أستمد أسباب حياتي؟ ألا يكون من الحماقة آخر الأمر، أن أنظر إلى بعيد، ما دامت السعادة بين يدي، أترشف منها وأتلذذ بها. وأكاد أنكر أن بوسع إنسان أن يدرك منها ما أدرك؟

«أعتقد اني لم أزِلْ من نفسه كل أثر سيء خلفّه حديثي إليه عن الغد. سأحاول أن أفتح اليوم هذا الموضوع مرة أخرى لأصارحه. سأصارح حبيبي العربي بأني سأحبه كما تحب المرأة الرجل في الشرق، لا تطلب مقابلاً، ولا تنتظر عروضاً. لا أدري أين قرأت هذا. ولكني أعتقد أنه الحب الصحيح، لأنه التفاني كله والإخلاص... أم أراني على خطأ؟ مهما يكن من أمر، فسأقول له

إنه لا يخفيني بعد أن يذهب، فقد زوّد حياتي بزاد من الحب لا أحسب أنه سيجفّ يوماً.

«أنا ذاهبة الآن إلى عملي بعد هذه الأيام العشرة من المرض... أحسّ بنشوة في صدري، وأشعر بهذه السماء الربيعية الصافية تدخل إلى قلبي فتملأه أملاً وحياة ورغبة. أظن أني لن أدع المرض يتغلب عليّ بعد الآن. أنني أستشعر ذخيرة غنية من رصيد المقاومة. شكراً لك أيها الحبيب، شكراً لك يا حبيبي العربي».

وحين أغلق الدفتر، سمع صوت تيريز:

ـ وأما الصغير جان...

ـ ستحدثيني عنه غداً يا تيريز. فينبغي لي الآن أن أسرع بالخروج.

ـ لِمَ لَمْ تصحب جانين، ما دمت تنوي أن تقضي السهرة معنا؟ أما كان الأفضل أن نكون فتاتين، وأنتما شابّان! إنني أكاد أخاف على نفسي بينكما!.

وانفجرت فرانسواز ضاحكة، وهي تلتصق بفؤاد، وتكشر في وجهه تكشيرة مصطنعة.

وأجاب هو:

ـ كم كان يسعدني أن تصحبني جانين. ولكن الواقع أنها مدعوة الليلة إلى سهرة لدى أسرة فرنسية من صديقات أسرتها.

قالها ثم ندم. كان بوسعه أن يتحاشى الجواب عن سؤال

فرانسواز بتحويل الحديث إلى وجهة أخرى، وبذلك لا يُدفع دفعاً إلى الكذب. وكأنه حسب أن بإمكانه استدراك قوله، فسأل فرانسواز:

ـ قولي الحق يا فرانسوار: أصحيح أن الفتاة الفرنسية إجمالاً تخشى من الشرقي؟

ـ نعم صحيح! لست أتملقكما إذا قلت إن هذا أمر مؤسف حقاً. على أن الخطأ ليس هو خطأ الفتاة الفرنسية. هكذا علّموها في بعض مجتمعاتهم...

ودُقّ الباب في تلك اللحظة، ودخل بالتتالي عدنان وربيع وأحمد فالتفت فؤاد يقول:

ـ ها إن الشمل قد اجتمع... لا ينقصنا سوى صبحي حتى نؤلف جوقة موسيقية عربية!.

وفكّر فجأة أن الأحرى به، هو، أن يقول حتى «نركّب طاولة بوكر!» وراقت له الفكرة، وحدّث نفسه أن من اليسير عليه أن يمهّد لها متى حانت المناسبة. وقال عدنان معلقاً:

ـ قد تعجبون إذا علمتم أين هو صبحي الآن!

ـ في المرقص؟

ـ في السينما؟

ـ في كهف من كهوف «السان جرمان؟».

فظل عدنان يومي برأسه نفياً، ثم قال بهدوء:

ـ في غرفته!

فضحك بعضهم. وعدّها الآخرون نكتة بائخة... ولكن عدنان قال برصانة:

ـ لم أرد أن أضحككم. وإنما أن أنبئكم بأن صديقنا العزيز قد تطوّر منذ صباح أمس تطوراً عجيباً! إنه الآن في غرفته، لا مع امرأة وإنما مع كتاب! وقد ألححت عليه في أن يصحبنا، ولكنه رفض رفضاً شديداً.

وروى عدنان كيف أتاه صبحي بالأمس يعلن أنه منصرف منذ يومه عن اللهو والعبث، وأنه سيسلك مسلك الجد والعمل! فهو لم يكد ينجز خلال هذه الأشهر الستة أي مادة من مواد الشهادات التي سيقدمها في دورة حزيران، ثم إنه قد أصيب من المرأة في باريس بالنفور بل بالغثيان وإنه...

فقاطعه أحمد:

ـ أما أنه لم يفعل شيئاً في كلية الحقوق، فهذا لا مراء فيه! وأما أنه أصيب من المرأة بالغثيان، ففي هذا كله المراء! بضعة أيام، وسترون! سيعود إلى المرأة أشد لهفة وأوفر اندفاعاً... إنه أيها الاعزاء يعوّض عما فات. وعما هو آت!

وانفجرت ضحكتهم، فاهتزت لها الجدران. ولاحظ ربيع ذلك، فسأل فؤاد:

ـ نرجو ألا نزعج بأصواتنا صاحبة البانسيون أو بعض نزلائه.

ـ لا، ليس في ذلك أي إزعاج. كلّ ما سيقولونه إن هؤلاء العرب لا يتعلمون الكلام في مدارس الشرق، وإنما يتعلمون الصراخ والزّعاق!.

وتذكر هو ما كانت فرانسواز قد بدأته من حديث عن نظرة الفتاة الفرنسية إلى الشرقي، حين دخل الأصدقاء فقطعوا عليها الكلام. ورجاها أن تستأنفه، فابتسمت فرانسواز وقالت:

ـ كنت أتحدث عن خوف الفرنسية ـ إجمالاً ـ إذا وجدت مع شرقيّ واحد... فكيف يكون خوفها إذا وجُدت مع خمسة!.

وبعد أن كفكفوا ضحكتهم، وهم ينتظرون إلى الباب خشية، استطردت تقول:

ـ لقد علّموا الفتاة الفرنسية، في بعض مجتمعاتهم، أن تخشى هذا الشرقي الساكن في الصحراء، القائم في مجتمع متأخر، لا بد أنه متوحش. وأعتقد أنكم مقصرون جداً في الدعاوة لأنفسكم...

فقال فؤاد، وكأنه يقاطعها:

ـ هذا صحيح، ولكننا سنظل مقصرين في هذا السبيل. ولو بذلنا ملايين الفرنكات، ما دام اليهود هم الذين يستولون برؤوس أموالهم على أهم المرافق الفرنسية!

فقالت فرانسواز:

ـ إنني أقرك يا عزيزي على رأيك. ولكن إلى حد. فليس

مال اليهود هو كل شيء في القضية. وأنا أؤكد لك أن أعداء اليهودية والصهيونية في فرنسا أكثر مما يتصور البعض. ولكن هناك أمراً آخر تعذرونني إذا صارحتكم به. إن بعض العناصر الشرقية، والعربية بصورة خاصة، تعطي في كثير من الأحيان فكرة سيئة عنكم، بما يرافق مسلكها من شذوذ وخرق للمواضعات الاجتماعية. ولولا ذلك...

وهنا قاطعها ربيع بسؤال هادئ:

ـ ولكن هل لك أن تحددي «بعض» هذه العناصر؟ لعلكِ تقصدين الأفريقين الشماليين؟

ـ لم يكن بعض هؤلاء الأفريقيين الشماليين بعيداً عن ذهني، وأنا أقول ما قلت!.

ـ أؤكد لك أيتها الآنسة أن هؤلاء الأفريقيين من تونسيين وجزائريين ومراكشيين، الذين يسكنون هنا، في أحياء خاصة لهم، هم أبعد من أن يمثّلوا حقيقة السكان في تلك الأقطار. وقد بات معلوماً اليوم أن السلطة تشجع قيام هذه الأحياء الخاصة في باريس وتترك لها أن تعيش حياتها الخاصة، بما فيها من جهل وفقر وانحطاط ـ ولا تنسوا أن معظم هؤلاء السكان من العمال والباعة المتجولين، ومن طريدي العدالة والجناة... إن السلطات تشجع هذه الأحياء، وتدع لها طابع الحياة المستقلة، لتقيم الدليل على هؤلاء المقيمين في باريس، لا يستحق مواطنوهم أن ينعموا بالحرية والاستقلال. إنه الاستعمار، أيتها الآنسة فرانسواز. يتوسل بكل وسيلة ليظل ثابت الأقدام في بلادنا...

قال فرانسواز، وهي تفرك يديها:

ـ آسف يا سيد ربيع إن كنت قد أوهمتك أني أود أن أمس حسك الوطني بما قلت. لم أقصد إلى ذلك إطلاقاً... وأنا أرى أن الموضوع قد تطوَّر فخرج عن النطاق الذي قصدناه. أليس كذلك يا فؤاد؟

والتفتت فرانسواز إلى فؤاد، فإذا هو يقول:

ـ ما رأيك يا عزيزي في أن نقوم، أنتِ وأنا، بإعداد الشاي لهذه الذئاب الكاسرة؟

فاحتج أحمد يقول:

ـ لِمَ الشاي؟ وزجاجة الخمر الأحمر التي هناك في الزاوية، لمن تستبقيها يا فؤاد؟

ـ لعلّ أحداً منكم لا يرى شرب الخمر في هذه الأيام من رمضان، فهو يؤثر شرب الشاي! عدنان مثلاً... لقد قيل لي إنك تصوم رمضان هنا في باريس...

قال عدنان:

ـ هذا صحيح. فأنا أصومه لأني أؤمن بالفائدة الصحية التي يحملها...

فقال فؤاد:

ـ وللخمر أيضاً فائدة صحية هنا، فهو يبعث بالدفء، ويجدّد النشاط...

فأجاب عدنان وهو يضحك:

ـ ومن قال لك إني لن أشربه؟ إن اللياقة تقتضي «المسايرة»... فعلّق ربيع، وضحكته تتصادم مع ضحكات الأصدقاء:

ـ إنك تؤمن بكل شيء أيها العزيز... وتؤمن على الخصوص بقول النواسي:

فخير هذا بشرّ ذا فاذا الله قد عفا!

وكانت فرانسواز وفؤاد يتعاونان على صبّ الخمر في أكواب الشاي وفناجين القهوة، حين طُرق الباب طرقات خفيفة. فخفتت الأصوات، ثم صمتت، وكان الداخل صبحي.

فصاح أحمد:

ـ أهلاً بزاهد النساء وعاشق الكتب!

ولكنّ صبحي اجتزأ بابتسامة مقتضبة وقال:

ـ إن عندي لكم نبأ لا مجال فيه للمزاح على ما أعتقد! وبسط لهم الطبعة الليلية الأخيرة من جريدة «فرانس سوار» فقرأوا بعنوان ضخم: «انقلاب عسكري جديد في سوريا». ثم أخذ يقرأ لهم تفاصيل النبأ.

وظلوا صامتين دقائق، بعد أن طُويت الصحيفة، وعادت إلى جيب صبحي. ثم هزّ فؤاد رأسه، وقال وبسمة ساخرة على شفتيه:

ـ لقد كنا نتوقّع ذلك منذ حدث الانقلاب الأول. لقد انتهى الأمر وسارت بلادنا في طريق الديكتاتورية العسكرية. ولكننا لم نفقد الأمل، ولن نفقده أبداً. وإلا لن يكون لوجودنا أيّ معنى!.

قال أحمد:

ـ صحيح أن الديكتاتورية العسكرية أمرٌ لا يستحق إلا الشجب. ولكنه يظل خيراً من الاستعمار الأجنبيّ الذي يلعب من وراء ستار في بلاد مستقلة اسمياً!

أما عدنان فراح يدافع عن الانقلاب الأول، وعن ضرورته في هذه الفترة من تاريخ البلاد، ثم قال كلاماً كثيراً يؤيد فكرة «المستبدّ العادل».

ولم ينهضوا ليتفرقوا إلى غرفهم إلا وقد جاوزت الساعة منتصف الليل. وقد سمع هو، صديقه فؤاد يقول لأحمد وهو يودعه:

ـ قبّحك الله... أنت الذي جنيت على زجاجة الخمر... فما أشدّ حاجتي إليها الآن!

وبلغ هو فندق «ليفران زوم» فرقي السلم مسرعاً، حتى إذا ما أدرك الطابق السادس، تمهّل في سيره، وراح يسترق الخطى استراقاً.

ولقد هدأت أنفاسه حين رأى النور مطلقاً في غرفة جانين.

خاتمة

لا، ما أنت بالحالم، وقد آن لك أن تصدّق عينيك. أوَما تشعر باهتزاز الباخرة، وهي تشقّ هذه الأمواج، مبتعدةً بك عن الشاطئ، متجهةً صوب عاصمة بلادك؟

لا، ليس هو بالحالم، فهذه أطياف بيضاء تلوح في جموع المستقبلين، وتبدو لعينيه أشباحاً نائية، كأنما هي رسم اهتزت به يد المصور، فخرج مضطرب الخطوط، وما تلبث طويلاً حتى تتجلى معالمها. ولم يعرف أن ذلك الجمع الصغير الأبيض هو جمع أهله إلا حين أصبحت الباخرة على بعدٍ يسير من الشاطئ.

وتقترب منه الوجوه رويداً رويداً، ثم ينبثق منها فجأةً وجهٌ فتيّ، في ملامحه قسوةٌ وقلق. ويظل هذا الوجه الحبيب يكبر وينمو، ملامح وتقاسيم عميقةً معبّرة، واثقةً ومشرقة، ويرتفع ويسمو، حتى يحتل الشاطئ، وكلّ شيء من ورائه ظل، ثم يملأ الأفق كله، فلا ترى عيناه من دونه شيئاً.

وتكون يد فؤاد أول يدٍ يصافحها، فيشعر أنه يصافح فيها عشرات من الأيدي التي يعرفها، وألوفاً من الأيدي التي لا يعرفها انتثر أصحابها هنا في بيروت، وهناك في دمشق، وهنالك في القاهرة والقدس وبغداد وتونس، وفي كل ركن من بلاد العروبة.

ويظلّ هو ينظر في عيني فؤاد، ويظل فؤاد ينظر في عينيه باسماً منطلق الأسارير، حتى يأتيه صوت أمه ضعيفاً كأنما هو ينتحب:

ـ وأنا يا بنيّ، هل نسيتني؟

فاتجه إليها وأخذها بين ذراعيه يقبّلها ويقول لها:

ـ لا يا أمي الحبيبة لم أنسَك، ولا يمكن لي أن أنساكِ، ولكني رأيت فؤاد قبل أن أراك.

ثم أقبل على إخوته يعانقهم. وأقبل عليه أصدقاؤه وأقاربه يهنئونه بالسلامة وقدّم له أحدهم باقة من الزهور وهو يقول:

ـ رمزٌ لتهنئتنا لك بالشهادة.

وعادت إليه أمه تنتزعه من أصحابه، كأنها كانت تخشى أن يفروا به دونها، ثم قالت، وكأنما تعلق على عبارة صديقه:

ـ الحمد لله... لقد انتهينا الآن يا بنيّ، أليس كذلك؟

وفي تلك اللحظة، طافت بمخيلته حياته الباريسية كلها في الحي اللاتيني، وذكر أصدقاءه، هؤلاء الذين سيعودون عما قليل إلى الوطن، فأطبق جفنيه هنيهة، ثم فتحهما، فإذا فؤاد في وجهه تبسم له عيناه الواثقتان القاسيتان.

وتناول ذراع أمه ومضى بها. وغمره الاطمئنان حين شعر بأن فؤاد إلى جانبه. وأعادت عليه أمه السؤال:

لقد انتهينا الآن إذاً يا بني، أليس كذلك؟

فأجابها من غير أن ينظر إليها:

ـ بل الآن نبدأ يا أمي...

موسم الهجرة إلى الشمال

الطيب صالح (1967)

الطيب صالح (1929 ـ 2009)، روائي سوداني كبير. أطلق عليه النقاد لقب «عبقري الرواية العربية». عاش في بريطانيا وقطر وفرنسا. وفي شبابه انتقل إلى الخرطوم لإكمال دراسته فحصل من جامعتها على درجة البكالوريوس في العلوم. سافر إلى إنجلترا حيث واصل دراسته، وغيّر تخصصه إلى دراسة الشؤون الدولية. تنقل الطيب صالح بين عدة مواقع مهنية، فعدا عن خبرة قصيرة في إدارة مدرسة، عمل الطيب صالح لسنوات طويلة من حياته في القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية، وترقى بها حتى وصل إلى منصب مدير قسم الدراما، وبعد استقالته من البي بي سي عاد إلى السودان وعمل لفترة في الإذاعة السودانية، ثم هاجر إلى دولة قطر وعمل في وزارة إعلامها وكيلاً ومشرفاً على أجهزتها. عمل بعد ذلك مديراً إقليمياً بمنظمة اليونيسكو في باريس، وعمل ممثلاً لهذه المنظمة في الخليج العربي. ويمكن القول إن حالة الترحال والتنقل بين

الشرق والغرب والشمال والجنوب أكسبته خبرة واسعة بأحوال الحياة والعالم وأهم من ذلك أحوال أمته وقضاياها وهو ما وظفه في كتاباته وأعماله الروائية وخاصة روايته العالمية موسم الهجرة إلى الشمال.

الطيب صالح كتب العديد من الروايات التي ترجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة وهي «موسم الهجرة إلى الشمال» و«عرس الزين» و«مريود» و«ضو البيت» و«دومة ود حامد» و«منسي».

أعماله:

- موسم الهجرة إلى الشمال
- ضو البيت (بندر شاه)
- دومة ود حامد
- عرس الزين
- مريود

الرواية:

نشرت عن دار العودة في بيروت في 1967 ونالت شهرتها من كونها من أولى الروايات التي تناولت، بشكل فني راق، الصدام بين الحضارات وموقف إنسان العالم الثالث ـ النامي ورؤيته للعالم الأول المتقدم. في هذه الرواية يزور مصطفى

سعيد، وهو طالب عربي، الغرب ويحصل على وظيفة كمحاضر في إحدى الجامعات البريطانية ويتبنى قيم المجتمع البريطاني. هناك يتعرف إلى زوجته، جين موريس، وهي امرأة بريطانية ترفض قبول إملاءات زوجها. بعد سبعة أعوام يعود مصطفى إلى بلاده، حيث يلتقي هناك بصورة مفاجئة براوي القصة الذي عاش أيضاً في بريطانيا. القصة نفسها تروى عن طريق قصص يرويها الراوي والبطل. شخصية مصطفى سعيد ممزقة «بين هويته العربية الأفريقية، وثقافته التي صاغها الغرب الاستعماري، وهو تمزق لا يتضح في الشخصية فحسب، بل في ما تتركه من دمار في أي موضع تحل به وشخصية تتماس معها في علاقة حب أو صداقة» (قاموس الأدب العربي الحديث، القاهرة: دار الشروق، 2007، ص 304.)

ooo

عدت إلى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة، سبعة أعوام على وجه التحديد، كنت خلالها أتعلم في أوروبا. تعلمت الكثير، وغاب عني الكثير، لكن تلك قصة أخرى. المهم أنني عدت وبي شوق عظيم إلى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل. سبعة أعوام وأنا أحن إليهم وأحلم بهم، ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة أن وجدتني حقيقة قائماً بينهم، فرحوا بي وضجوا حولي، ولم يمض وقت طويل حتى أحسست كأن ثلجاً يذوب في دخيلتي،

فكأنني مقرور طلعت عليه الشمس. ذاك دفء الحياة في العشيرة. فقدته زماناً في بلاد «تموت من البرد حيتانها». تعودت أذناي أصواتهم. وألفت عيناي أشكالهم من كثرة ما فكرت فيهم في الغيبة، قام بيني وبينهم شيء مثل الضباب، أول وهلة رأيتهم. لكن الضباب راح، واستيقظت ثاني يوم وصولي، في فراشي الذي أعرفه في الغرفة التي تشهد جدرانها على نزهات حياتي في طفولتها ومطلع شبابها وأرخيت أذني للريح. ذاك لعمري صوت أعرفه، له في بلدنا وشوشة مرحة. صوت الريح وهي تمر بالنخل غيرها «وهي تمر بحقول القمح». وسمعت هديل القمري، ونظرت خلال النافذة إلى النخلة القائمة في فناء دارنا، فعلمت أن الحياة لا تزال بخير. أنظر إلى جذعها القوي الممتدل، وإلى عروقها الضاربة في الأرض، وإلى الجريد الأخضر المنهدل فوق هامتها فأحس بالطمأنية. أحس أنني لست ريشة في مهب الريح، ولكنني مثل تلك النخلة، مخلوق له أصل، له جذور له هدف.

وجاءت أمي تحمل الشاي. وفرغ أبي من صلاته وأوراده فجاء. وجاءت أختي، وجاء أخواي، وجلسنا نشرب الشاي ونتحدث، شأننا منذ تفتحت عيناي على الحياة. نعم، الحياة طيبة، والدنيا كحالها لم تتغير.

فجأة تذكرت وجهاً رأيته بين المستقبلين لم أعرفه. سألتهم عنه، ووصفته لهم. رجل ربعة القامة، في نحو الخمسين أو يزيد

قليلاً. شعر رأسه كثيف مبيضّ. ليس له لحية وشاربه أصفر قليلاً من شوارب الرجال في البلد. رجل وسيم.

وقال أبي: «هذا مصطفى»

مصطفى من؟ هل هو أحد المغتربين من أبناء البلد عاد؟

وقال أبي إن مصطفى ليس من أهل البلد، لكنه غريب جاء منذ خمسة أعوام، اشترى مزرعة وبنى بيتاً وتزوج بنت محمود... رجل في حاله، لا يعلمون عنه الكثير.

لا أعلم تماماً ماذا أثار فضولي. لكنني تذكرت أنه يوم وصولي كان صامتاً. كل أحد سألني وسألته. سألوني عن أوروبا. هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا؟ هل المعيشة غالية أم رخيصة؟ ماذا يفعل الناس في الشتاء؟ يقولون إن النساء سافرات يرقصن علانية مع الرجال. وسألني ود الريس: «هل صحيح أنهم لا يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام؟».

أسئلة كثيرة رددت عليها حسب علمي. دهشوا حين قلت لهم إن الأوروبيين، إذا استثنينا فوارق ضئيلة، مثلنا تماماً، يتزوجون ويربون أولادهم حسب التقاليد والأصول، ولهم أخلاق حسنة، وهم عموماً قوم طيبون.

وسألني محجوب. «هل بينهم مزارعون؟»

وقلت له: «نعم بينهم مزارعون وبينهم كل شيء. منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم، مثلنا تماماً». وآثرت ألا أقول

بقية ما خطر على بالي: «مثلنا تماماً. يولدون ويموتون وفي الرحلة من المهد إلى اللحد يحلمون أحلاماً بعضها يصدق وبعضها يخيب. يخافون من المجهول، وينشدون الحب، ويبحثون عن الطمأنينة في الزوج والولد. فيهم أقوياء، وبينهم مستضعفون، بعضهم أعطته الحياة أكثر مما يستحق، وبعضهم حرمته الحياة لم أقل لمحجوب هذا، وليتني قلت، فقد كان ذكياً. خفت، من غروري، ألا يفهم.

وقالت بنت مجذوب ضاحكة: «خفنا أن تعود إلينا بنصرانية غلفاء».

لكن مصطفى لم يقل شيئاً. ظل يستمع في صمت، يبتسم أحياناً، ابتسامة أذكر الآن أنها كانت غامضة، مثل شخص يحدث نفسه.

نسيت مصطفى بعد ذلك، فقد بدأت أعيد صلتي بالناس والأشياء في القرية. كنت سعيداً تلك الأيام، كطفل يرى وجهه في المرآة لأول مرة. وكانت أمي لي بالمرصاد، تذكرني بمن مات، لأذهب وأعزي، وتذكرني بمن تزوج، لأذهب وأهنئ. جبت البلد طولاً وعرضاً معزياً ومهنئا. ويوماً ذهبت إلى مكاني الأثير، عند جذع شجرة طلح على ضفة النهر. كم عدد الساعات التي قضيتها في طفولتي تحت تلك الشجرة، أرمي الحجارة في النهر وأحلم، ويشرد خيالي في الأفق البعيد؟ أسمع أنين السواقي على النهر، وتصايح الناس في الحقول، وخوار ثور أو نهيق حمار. كان الحظ يسعدني أحياناً، فتمر الباخرة أمامي صاعدة أو نازلة. من

مكاني تحت الشجرة، رأيت البلد يتغير في بطء. راحت السواقي، وقامت على ضفة النيل طلمبات لضخ الماء، كل مكنة تؤدي عمل مائة ساقية. ورأيت الضفة تتقهقر عاماً بعد عام أمام لطمات الماء، وفي جانب آخر يتقهقر الماء أمامها. وكانت تخطر في ذهني أحياناً أفكار غريبة. كنت أفكر، وأنا أرى الشاطئ يضيق في مكان، ويتسع في مكان، أن ذلك شأن الحياة، تعطي بيد وتأخذ باليد الأخرى. لكن لعلني أدركت ذلك فيما بعد. أنا الآن، على أي حال، أدرك هذه الحكمة، لكن بذهني فقط، إذ أن عضلاتي تحت جلدي مرنة مطواعة وقلبي متفائل. إنني أريد أن آخذ حقي من الحياة عنوة، أريد أن أعطي بسخاء، أريد أن يفيض الحب من قلبي فينبع ويثمر. ثمة آفاق كثيرة تقرأ، وصفحات بيضاء في سجل العمر، سأكتب فيها جملاً واضحة بخط جريء. وأنظر إلى النهر بدأ ماؤه يربد بالطمي ـ لا بد أن المطر هطل في هضاب الحبشة ـ وإلى الرجال قاماتهم متكئة على المحاريث، أو منحنية على المعاول. وتمتلئ عيناي بالحقول المنبسطة كراحة اليد إلى طرف الصحراء حيث تقوم البيوت. أسمع طائراً يغرد، أو كلباً ينبح، أو صوت فأس في الحطب.

وأحس بالاستقرار. أحس أنني مهم، وأنني مستمر، ومتكامل. «لا... لست أنا الحجر يلقى في الماء، لكنني البذرة تبذر في الحقل». وأذهب إلى جدي، فيحدثني عن الحياة قبل أربعين عاماً قبل خمسين عاماً، لا بل ثمانين، فيقوى إحساسي بالأمن. كنت أحب جدي، ويبدو أنه كان يؤثرني. ولعل أحد أسباب صداقتي

معه، أنني كنت منذ صغري تشحذ خيالي حكايات الماضي. وكان جدي يحب أن يحكي. ولما سافرت خفت أن يموت في غيبتي. وكنت حين يلم بي الحنين إلى أهلي، أراه في منامي. قلت له ذلك، فضحك وقال: «حدثني عراف وأنا شاب، أنني إذا جاوزت عمر النبوة ـ يعني الستين ـ فإنني سأصل المائة». وحسبنا عمره، أنا وهو فوجدنا أنه بقي له نحو اثني عشر عاماً.

كان جدي يحدثني عن حاكم غاشم، حكم ذلك الإقليم أيام الأتراك. ولست أعلم ما الذي دفع بمصطفى إلى ذهني، لكني تذكرته بغتة. فقلت أسأل عنه جدي، فهو عليم بحسب كل أحد في البلد ونسبه، بل بأحساب وأنساب مبعثرة قبلي وبحري، أعلى النهر وأسفله. لكن جدي هز رأسه وقال إنه لا يعلم عنه سوى أنه من نواحي الخرطوم، وأنه جاء إلى البلد منذ نحو خمسة أعوام، واشترى أرضاً تفرق وارثوها، ولم تبق منهم إلا امرأة. فأغراها الرجل بالمال واشتراها منها. ثم قبل أربعة أعوام زوجه محمود إحدى بناته. قلت لجدي: «أي بناته؟» فقال: «أظنها حسنة». وهز جدي رأسه وقال: «تلك القبيلة. لا يبالون لمن يزوجون بناتهم». لكنه أردف، كأنه يعتذر، أن مصطفى طول إقامته في البلد، لم يبدو منه شيء منفر، وأنه يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام، وأنه يسارع «بذراعه وقدحه في الأفراح والأتراح»... هكذا طريقة جدي في الكلام.

بعد هذا بيومين، كنت وحدي أقرأ وقت القيلولة. كانت أمي وأختي تلغطان مع بعض النسوة في أقصى البيت، وكان أبي نائماً،

وقد خرج أخواي لشأن ما، فخلوت بنفسي. سمعت نحنحة خارج البيت، فقمت، فإذا هو مصطفى، يحمل بطيخة كبيرة، وزنبيلاً مملوءاً برتقالاً. ولعله رأى الدهشة على وجهي، فقال: «أرجو ألا أكون أيقظتك من نوم. لكنني قلت أجيئك بعينة من ثمر الحقل، تذوقه. كذلك أحب أن أتعرف إليك. وقت الظهيرة ليس وقت زيارة. اعذرني».

لم يغب عني أدبه الجم، فأهل بلدنا لا يبالون بعبارات المجاملة. يدخلون في الموضوع دفعة واحدة، يزورونك ظهراً كان أو عصراً، لا يهمهم أن يقدموا المعاذير. رددت الود بالود، ثم جيء بالشاي.

دققت النظر في وجهه، وهو مطرق. إنه رجل وسيم دون شك، جبهته عريضة رحبة، وحاجباه متباعدان، يقومان أهلة فوق عينيه، ورأسه بشعره الغزير الأسيب متناسق تماماً مع رقبته وكتفيه، وأنفه حاد منخاراه مليئان بالشعر. ولما رفع وجهه أثناء الحديث، نظرت إلى فمه وعينيه، فأحسست بالمزيج الغريب من القوة والضعف في وجه الرجل. كان فمه رخواً، وكانت عيناه ناعستين، تجعلان وجهه أقرب إلى الجمال منه إلى الوسامة. ويتحدث بهدوء، لكن صوته واضح قاطع. حين يسكن وجهه ويقوى، وحين يضحك يغلب الضعف على القوة. ونظرت إلى ذراعيه، فكانتا قويتين، عروقهما نافرة. لكن أصابعه كانت طويلة

رشيقة، حين يصل النظر إليهما بعد تأمل الذراع واليد، تحس بغتة كأنك انحدرت من الجبل إلى الوادي.

قلت أدعه يتحدث، فهو لم يجىء إليّ في حمأة القيظ، إلا ليقول لي شيئاً. ولعله من ناحية أخرى جاء بوازع من حسن النية. لكنه قطع عليّ حدسي. فقال: «لعلك الوحيد من أهل البلد، الذي لم أسعد بالتعرف عليه من قبل». لماذا لا يترك هذا الأدب. ونحن في بلد إذا غضب فيها الرجال. قال بعضهم لبعض: يا ابن الكلب.

«سمعت كثيراً عنك من أهلك وأصدقائك» ـ لا غرو ـ فقد كنت أعد نفسي زينة الشباب في البلد.

«قالوا إنك نلت شهادة كبيرة ـ ماذا تسمونها؟ الدكتوراه» يقول لي ماذا تسمونها؟ لم يعجبني ذلك، فقد كنت أحسب أن الملايين العشرة في القطر كلهم سمعوا بانتصاري.

«يقولون إنك لامع منذ صغرك».

«العفو» ـ هكذا قلت، لكنني، والحق يقال، كنت تلك الايام مزهواً بنفسي، حسن الظن بها.

«دكتوراه. هذا شيء كبير».

فقلت له، وأنا أتصنع التواضع، إن الأمر لا يعدو أنني قضيت ثلاثة أعوام، أنقب في حياة شاعر مغمور من شعراء الإنكليز. واغتظت، لا أخفي عليكم أنني اغتظت، حين ضحك الرجل ملء وجهه، وقال:

«نحن لا حاجة لنا بالشعر. لو أنك درست علم الزراعة أو الهندسة أو الطب، لكان خيراً». انظر كيف يقول «نحن» ولا يشملني بها، مع العلم بأن البلد بلدي، وهو ـ لا أنا ـ الغريب.

لكنه ابتسم في وجهي برقة، ولاحظت كيف طغى الضعف في وجهه على القوة، وكيف أن عينيه في الواقع جميلتان كعيني أنثى، وقال:

«لكن نحن مزارعون نفكر في ما يعنينا، إنما العلم، مهما كان، ضروري لرفعة الوطن».

صمت برهة، فازدحمت أسئلة كثيرة في رأسي: من أين هو؟ ولماذا استقر في هذا البلد؟ وما هي قصته؟ لكنني آثرت التريث، وأسعفني هو فقال:

«الحياة في هذا البلد هينة خيرة. الناس طيبون، عشرتهم سهلة».

فقلت له: «إنهم يذكرونك بالخير. جدي يقول إنك رجل فاضل».

ضحك حينئذ، ربما لأنه تذكر مقابلة له مع جدي، وبدا كأنه سر من قولي، وقال:

«جدك... ذاك رجل. ذاك رجل... تسعون عاماً وقامته منتصبة، ونظره حاد، وكل سن في فمه. يقفز فوق الحمار خفيفاً، ويمشي من بيته للمسجد في الفجر. هاك ذاك رجل».

كان مخلصاً وهو يقول هذا. ولم لا؟ وجدي، في واقع الأمر، أعجوبة.

وخفت أن يفلت الرجل قبل أن أعلم عنه شيئاً ـ إلى هذا الحد بلغ فضولي ـ فجرى السؤال عن لساني قبل أن أفكر:

«هل صحيح أنك من الخرطوم؟».

وفوجئ الرجل قليلاً وخيل لي أن ما بين عينيه قد تعكر، لكنه بسرعة ومهارة عاد إلى هدوئه، قال لي وهو يتعمد أن يبتسم: «من ضواحي الخرطوم في الواقع. قل الخرطوم».

وصمت برهة قصيرة، وكأنه يناقش بينه وبين نفسه، هل يصمت أم يعطيني المزيد. ثم رأيت الطيف الساحر يحوم حول عينيه، تماماً كما رأيته أول يوم، وقال وهو ينظر الئ وجهاً قبالة وجه:

«كنت في الخرطوم أعمل في التجارة. ثم لأسباب عديدة، قررت أن اتحول للزراعة. كنت طول حياتي أشتاق للاستقرار في هذا الجزء من القطر، لا أعلم السبب. وركبت الباخرة، وأنا لا أعلم وجهتي. ولما رست في هذا البلد، أعجبتني هيئتها. وهجس هاجس في قلبي: هذا هو المكان. وهكذا كان، كما ترى. لم يخب ظني في البلد ولا أهله».

ثم صمت، وقام قائلاً إنه ذاهب للحقل، ودعاني للعشاء في بيته بعد يومين.

ولما أوصلته للباب، قال لي وهو يودعني، والطيف الساحر أكثر وضوحاً حول عينيه:

«جدك يعرف السر».

ولم يمهلني حتى أسأله: «أي سر يعرفه جدي؟ جدي ليست له أسرار». ولكنه مضى مبتعداً بخطوات نشيطة متحفزة. رأسه يميل قليلاً إلى اليسار.

ذهبت للعشاء فوجدت محجوبا، والعمدة، وسعيد التاجر، وأبي. تعشينا دون أن يقول مصطفى شيئاً يثير الاهتمام. كان كعادته يسمع أكثر مما يتكلم. كنت، حين يخفت الحديث وحين أجد أنه لا يعنيني كثيراً، أتلفت حولي كأنني أحاول أن أجد في غرف البيت وجدرانه الجواب على الأسئلة التي تدور في رأسي. لكنه كان بيتاً عادياً، ليس أحسن ولا أسوأ من بيوت الميسورين في البلد. منقسم إلى جزءين كبقية البيوت، جزء للنساء، والقسم الذي فيه «الديوان» للرجال. ورأيت إلى يمين الديوان غرفة من الطوب الأحمر، مستطيلة الشكل، ذات نوافذ خضراء. سقفها لم يكن مسطحاً كالعادة ولكنه كان مثلثاً كظهر الثور.

قمنا أنا ومحجوب وتركنا الباقين. وفي الطريق سألت محجوباً عن مصطفى. لم يخبرني بجديد لكنه قال: «مصطفى رجل عميق».

قضيت في البلد شهرين، كنت خلالهما سعيداً وقد جمعتني الصدف بمصطفى عدة مرات. دعيت لحضور اجتماع لجنة المشروع الزراعي. دعاني محجوب، رئيس اللجنة وقد كان صديقي، نشأنا معاً منذ طفولتنا. دخلت عليهم وكان مصطفى بينهم، وكانوا يبحثون أمراً يتعلق بتوزيع الماء على الحقول. ويبدو

أن بعض الناس، ومنهم من هو عضو في اللجنة، كانوا يفتحون الماء في حقولهم قبل الموعد المحدد لهم. واحتد النقاش وتصايحوا بعضهم على بعض وفجأة رأيت مصطفى يهب واقفاً. هدأ اللغط واستمعوا إليه باحترام زائد. وقال مصطفى إن الخضوع للنظام في المشروع أمر مهم وإلا اختلطت الأمور وسادت الفوضى، وإن على أعضاء اللجنة خاصة أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم، فإذا خالفوا القانون عوقبوا كبقية الناس. ولما فرغ من كلامه هز أغلب أعضاء اللجنة رؤوسهم استحساناً، وصمت من عناهم الكلام.

لم يكن ثمة أدنى شك في أن الرجل من عجينة أخرى، وأنه أحقهم برئاسة اللجنة، لكن ربما لأنه ليس من أهل البلد لم ينتخبوه.

بعد هذا بنحو أسبوع، حدث شيء أذهلني. دعاني محجوب لمجلس شراب. وبينما نحن نسمر جاء مصطفى يكلم محجوباً في شأن من شؤون المشروع. دعاه محجوب أن يجلس فاعتذر، ولكن محجوباً حلف عليه بالطلاق. مرة أخرى لاحظت سحابة التبرم تنعقد ما بين عينيه، ولكنه جلس، وعاد بسرعة إلى هدوئه الطبيعي. وناوله محجوب كأساً من الشراب، فتردد برهة ثم أمسك بها ووضعها إلى جانبه دون أن يشرب منها. ومرة أخرى أقسم محجوب، فشرب مصطفى. كنت أعرف محجوباً متهوراً، فخطر لي أن أمنعه عن مضايقة الرجل، إذ من الواضح أنه غير راغب في الجلسة أصلاً. لكن خاطراً آخر هجس في ذهني،

فتوقفت. شرب مصطفى الكأس الاولى باشمئزاز واضح، شربها بسرعة، كأنها دواء مقيت. لكنه لما وصل إلى الكأس الثالثة، أخذ يبطئ ويمص الشراب مصاً، بلذة. حينئذ ارتخت عضلات وجهه، وغاب التوتر في أركان فمه، وأصبحت عيناه حالمتين ناعستين، أكثر من ذي قبل. القوة التي تحسها في رأسه وجبهته وأنفه، ضاعت تماماً في الضعف الذي سال، مع الشراب، على عينيه وفمه.

وشرب مصطفى كأساً رابعة، وكأساً خامسة. لم يعد في حاجة إلى تشجيع. لكن محجوباً كان يحلف بالطلاق على أي حال. دفن مصطفى قامته في المقعد، ومدد رجليه. وأمسك الكأس بكلتا يديه، وسرحت عيناه، كما خيل لي، في آفاق بعيدة، ثم، فجأة سمعته يتلو شعراً إنكليزياً، بصوت واضح ونطق سليم. قرأ قصيدة وجدتها فيما بعد بين قصائد عن الحرب العالمية الأولى:

«هؤلاء نساء فلاندرز

ينتظرن الضائعين،

ينتظرن الضائعين الذين أبداً لن يغادروا الميناء،

ينتظرن الضائعين الذين أبداً لن يجيء بهم القطار،

إلى أحضان هؤلاء النسوة، ذات الوجوه الميتة،

ينتظرن الضائعين، الذين يرقدون موتى في الخندق والحاجز والطين في ظلام الليل.

هذه محطة تشارنغ كروس. الساعة جاوزت الواحدة.

ثمة ضوء ضئيل

ثمة ألم عظيم».

بعد ذلك تأوه، وهو لا يزال ممسكاً بالكأس بين يديه، وعيناه سارحتان، في آفاق داخل نفسه.

أقول لكم، لو أن عفريتاً انشقت عنه الأرض فجأة، ووقف أمامي، عيناه تقدحان اللهب، لما ذعرت أكثر مما ذعرت. وخامرني، بغتة، شعور فظيع، شيء مثل الكابوس، كأننا نحن الرجال المجتمعين في تلك الغرفة، لم نكن حقيقة، إنما وهمٌ من الأوهام. وقفزت، ووقفت فوق الرجل، وصحت فيه: «ما هذا الذي تقول؟ ما هذا الذي تقول؟» نظر إلي نظرة جامدة، لا أدري كيف أصفها، لكن لعلها كانت خليطاً من الاحتقار والضيق. ودفعني بعنف بيده، ثم هب واقفاً وخرج من الغرفة في خطوات ثابتة، مرفوع الرأس، كأنه شيء ميكانيكي. كان محجوب مشغولاً، يضحك مع بقية من في المجلس، فلم ينتبه لما حدث.

ذهبت إليه ثاني يوم في حقله، فوجدته مكباً يحفر الأرض حول شجرة ليمون. كان مرتدياً سروالاً من الكاكي قصيراً متسخاً، وقميصاً من الدبلان يصل إلى ركبتيه، وعلى وجهه بقع من الطين. حياني بأدبه الجم كعادته وقال لي: «بعض فروع هذه الشجرة تثمر ليموناً، وبعضها يثمر برتقالاً».

فقلت له بالإنجليزي، عمداً: «شيء مدهش». فنظر إلي

مستغرباً وقال: «ماذا؟» فأعدت الجملة. ضحك وقال لي: «هل أنستك إقامتك الطويلة في إنجلترا العربي، أم تحسب أننا خواجات؟» قلت له: «لكنك ليلة أمس قرأت الشعر باللغة الإنجليزية».

غاظني صمته. فقلت له: «من الواضح أنك شخص آخر غير ما تزعم. من الخير أن تقول لي الحقيقة». لم يبد عليه أي تأثر بالتهديد الذي ضمنته كلامي، ومضى يحفر حول الشجرة. ولما فرغ من حفره، قال وهو ينفض الطين عن يديه دون أن ينظر إلي:

«لا أدري ماذا قلت وماذا فعلت في الليلة الماضية. السكران لا يؤاخذ على كلامه. إذا كنت قلت شيئاً، فهو كخترفة النائم، أو هذيان المحموم. ليست له قيمة. أنا هو هذا الشخص الذي أمامك، كما يعرفه كل أحد في البلد. لست خلاف ذلك، وليس عندي شيء أخفيه».

ذهبت إلى البيت، ورأسي يضج بالأفكار. أنا واثق أن وراء «مصطفى» قصة، أو شيئاً لا يريد أن يبوح به. هل خانتني أذناي ليلة البارحة؟ الشعر الإنجليزي الذي قرأه، كان حقيقة. لم أكن سكران، ولم أكن نائماً، وصورته وهو جالس في ذلك المقعد، ممداً رجليه، ممسكاً بالكأس بكلتا يديه، صورة واضحة لا مراء فيها. هل أحدث أبي؟ هل أقول لمحجوب؟ لعل الرجل قتل أحداً في مكان ما وفر من السجن؟ لعله... لكن أية أسرار في هذا البلد؟ لعله فقد ذاكرته؟ يقال إن بعض الناس يصابون

«بالامنيزيا» إثر حادث. وأخيراً قررت أن أمهله يومين أو ثلاثة، فإذا لم يأتني بالحقيقة، كان لي معه شأن آخر.

لم يطل انتظاري، فقد جاءني مصطفى عشية ذلك اليوم. وجد أبي وأخويّ أيضاً. فقال إنه يريد أن يحدثني على انفراد. قمت معه، فقال لي: «هل تحضر إلى بيتي مساء غد؟ أريد أن أتحدث إليك». ولما عدت سألني أبي: «ماذا يريد مصطفى؟» فقلت له إنه يريدني أن أفسر له عقداً بملكية أرض له في الخرطوم.

رحت إليه عند المغيب، فوجدته وحده، أمامه آنية شاي. عرض عليّ الشاي فأبيت، فقد كنت في الحقيقة أتعجل سماع القصة. لا بد أنه قرر أن يقول الحقيقة. أعطاني سيجارة فقبلتها.

تفرست في وجهه وهو ينفث الدخان ببطء، فبدا هادئاً قوياً. أبعدت الفكرة، وأنا أنظر في وجهه، أن يكون قاتلاً. استعمال العنف يترك أثراً في الوجه لا تخطئه العين.

أما أنه فقد ذاكرته، فهذا محتمل. وأخيراً بدأ مصطفى يتحدث، ورأيت الطيف الساخر حول عينيه أوضح من أي وقت رأيته فيه. شيء محسوس، كأنه لمع البرق.

«سأقول لك كلاماً لم أقله لأحد من قبل. لم أجد سبباً لذلك قبل الآن. قررت هذا حتى لا يجمح خيالك، وأنت درست الشعر». ضحك حتى يخفف حدة الاحتقار التي بدت في صوته وهو يقول هذا.

«خفت أن تذهب وتتحدث إلى الآخرين. تقول لهم إنني لست الرجل الذي أزعم. فيحدث... يحدث بعض الحرج، لي ولهم. لذا فإن لي عندك رجاءً واحداً. أن تعدني بشرفك، أن تقسم لي بأنك لن تبوح لمخلوق بشيء مما سأحدثك به الليلة».

ونظر إلي نظرة مركزة. فقلت له:

«هذا يعتمد على ما ستقوله لي. كيف أعدك وأنا لا أعلم عنك شيئاً؟».

فقال: «إنني أقسم لك بأن شيئاً مما سأقوله لك لن يؤثر على وجودي في هذا البلد. إنني رجل في كامل عقلي، مسالم، لا أحب لهذا البلد وأهله إلا الخير».

لا أكتمك أنني ترددت. لكن اللحظة كانت مشحونة بالاحتمالات، وكان فضولي عارماً ليس له حد. خلاصة القول أنني وعدت وأقسمت، فدفع مصطفى إلي برزمة أوراق وأومأ لي أن أنظر فيها. فتحت ورقة فاذا هي وثيقة ميلاده.

مصطفى سعيد، من مواليد الخرطوم، 16 أغسطس عام 1898... الأب متوفٌ، الأم فاطمة عبد الصادق. فتحت بعد ذلك جواز سفره، الاسم، المولد، البلد، كما في شهادة الميلاد. المهنة «طالب». تاريخ صدور الجواز عام 1916 في القاهرة وجدد في لندن عام 1926. كان ثمة جواز سفر آخر، إنكليزي، صدر في لندن عام 1929. قلبت صفحاته فاذا أختام كثيرة، فرنسية وألمانية وصينية دنماركية. كل هذا شحذ خيالي بشكل لا

يوصف. فلم أستطع المضي في تقليب صفحات جواز السفر، وانصرف ذهني عن بقية الأوراق. ولا بد أن وجهي كان مشحوناً بالترقب حين نظرت إليه. مضى مصطفى ينفث في دخان سيجارته برهة، ثم قال:...

كانت ليلة قائظة من ليالي شهر يوليو، وكان النيل قد فاض ذلك العام أحد فيضاناته تلك، التي تحدث مرة كل عشرين أو ثلاثين سنة، وتصبح أساطير يحدث بها الآباء أبناءهم. وغمر الماء أغلب الأرض الممتدة بين الشاطئ وطرف الصحراء حيث تقوم البيوت، وبقيت الحقول كجزيرة وسط الماء. وكان الرجال يتنقلون بين البيوت والحقول في قوارب صغيرة، أو يقطعون المسافة سباحة، وكان مصطفى سعيد حسب علمي يجيد السباحة. حدثني أبي، فقد كنت في الخرطوم وقتها، أنهم سمعوا بعد صلاة العشاء صراخ نسوة في الحي، فهرعوا إلى مصدر الصوت فاذا الصراخ في دار مصطفى سعيد. كان عادته أن يعود من حقله مع مغيب الشمس، ولكن زوجته انتظرت دون جدوى. وذهبت تسأل عنه هنا وهناك، فأخبروها انهم رأوه في حقله والبعض ظن أنه عاد إلى بيته مع بقية الرجال. وانكبت البلد كلها على الشاطئ. الرجال في أيديهم المصابيح وبعضهم في القوارب. وظلوا يبحثون الليل كله دون جدوى. وارسلوا إشارات تليفونية إلى مركز البوليس على امتداد النيل حق كرمه. ولكن الجثث التي حملها الموج إلى الشاطئ ذلك الأسبوع لم تكن بينها جثة

مصطفى سعيد. وفي النهاية أخلدوا إلى الرأي انه لا بد قد مات غرقاً، وأن جثمانه قد استقر في بطون التماسيح التي يغص بها الماء في تلك المنطقة.

أما أنا، فإنه يخامرني ذلك الإحساس الذي اعتراني ليلة سمعته، فجأة وعلى غير استعداد مني، يقرأ شعراً إنكليزياً، وهو ممسك كأس الخمر بيده، دافناً قامته في الكرسي، ممداً رجليه، ضوء المصباح ينعكس على وجهه، وعيناه سارحتان كما خيل لي في آفاق داخل نفسه. والظلام حولنا في الخارج كأنه قوى شيطانية تتضافر على خنق ضوء المصباح. أحياناً تخطر لي فجأة تلك الفكرة المزعجة أن مصطفى سعيد لم يحدث إطلاقاً، وأنه فعلاً أكذوبة، أو طيف أو حلم، أو كابوس، ألمّ بأهل القرية تلك، ذات ليلة داكنة خانقة، ولما فتحوا أعينهم مع ضوء الشمس لم يروه.

كان الليل قد بقي أقله حين قمت من عند مصطفى سعيد، وخرجت وأنا أشعر بالتعب ـ ربما من طول الجلوس ـ ومع ذلك لم أكن أرغب في النوم، فمضيت أتسكع في شوارع البلد الضيقة المتعرجة، تلامس وجهي نسمات الليل الباردة التي تهب من الشمال محملة بالندى، محملة برائحة زهور الطلح وروث البهائم، ورائحة الأرض التي رويت لتوها بالماء بعد ظمأ ايام، ورائحة قناديل الذرة في منتصف نضجها، وعبير أشجار الليمون. كان البلد كعادته صامتاً في تلك الساعة من الليل، الا من طقطقة

مكنة الماء على الشاطئ ونباح كلب من حين لآخر. وصياح ديك منفرد أحس بالفجر قبل الأوان، يحاربه صياح ديك آخر. ثم يخيم الصمت. ومررت ببيت ود الريس الوطيء عند منعطف الدرب، فرأيت من الطاقة الصغيرة ضوءاً خافتاً، وسمعت زوجة ود الريس تصرخ باللذة. وأحسست بالخجل لأنني اطلعت على أمر لم يكن من حقي أن أطلع عليه. لم يكن يحق لي أن أظل يقظاً أتسكع في شوارع البلد، وبقية الناس في أسرّتهم. إنني أعرف هذه القرية شارعاً شارعاً، وبيتاً بيتا، وأعرف أيضاً القباب العشر وسط المقبرة في طرف الصحراء أعلى البلد. والقبور أيضاً، أعرفها واحداً واحداً، زرتها مع أبي وزرتها مع أمي وزرتها مع جدي، وأعرف ساكنيها الذين ماتوا قبل أن يولد أبي والذين ماتوا بعد ولادتي. وقد شيعت مع المشيعين منهم أكثر من مائة، أساعد في حفر التربة، وأقف على حافة القبر في زحام الناس ريثما يوسد الميت بحجارته، وأهيل التراب. فعلت ذلك مع أهل البلد في الصباح، وفي حمارة القيظ أشهر الصيف، وبالليل في أيدينا المصابيح. والحقول أيضاً أعرفها، منذ كانت سواقي، وأيام القحط حين هجرها الرجال وتحولت الأرض الخصبة أرضاً بلقعاً تسفوها الريح. ثم جاءت مكنات الماء وجاءت الجمعيات التعاونية، وعاد من نزح من الرجال، وعادت الأرض كما كانت، تنتج الذرة في الصيف والقمح في الشتاء. كل هذا رأيته منذ فتحت عيني على الحياة، ولكنني أبداً لم أرَ القرية في مثل هذه الساعة في أواخر الليل. لا بد أن تلك النجمة الكبيرة الزرقاء

المتوهجة هي نجمة الصباح. السماء تبدو أقرب إلى الأرض في مثل هذه الساعة، قبيل الفجر، والبلد يلفها ضوء باهت يجعلها كأنها معلقة بين السماء والأرض.

وتذكرت وأنا أعبر رقعة الرمل التي تفصل بين بيت ود الريس وبيت جدي، تلك الصورة التي رسمها مصطفى سعيد، تذكرتها بنفس إحساس الخجل الذي اعتراني حين سمعت مناغاة ود الريس مع زوجته. فخذان بيضاوان مفتوحتان. ووصلت عند بيت جدي فسمعته يتلو أوراده استعداداً لصلاة الصبح. ألا ينام أبداً؟ صوت جدي يصل. كان آخر صوت أسمعه قبل أن أنام وأول صوت أسمعه حين أستيقظ. وهو على هذه الحال لا أدري كم من السنين كأنه شيء ثابت وسط عالم متحرك، وأحسست فجأة بروحي تنتعش كما يحدث أحياناً إثر إرهاق طويل، وصفا ذهني، وتبخرت الأفكار السوداء التي أثارها حديث مصطفى سعيد. البلد الآن ليس معلقاً بين السماء والأرض. ولكنه ثابت، البيوت ثابتة؟ والشجر، شجر، والسماء صافية ولكنها بعيدة؟ قال إنه أكذوبة؟ فهل أنا أيضاً أكذوبة؟ إنني من هنا. أليست هذه حقيقة كافية؟ لقد عشت أيضاً معهم، ولكنني عشت معهم على السطح، لا أحبهم ولا أكرههم. كنت أطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة، أراها بعين خيالي أينما التفت. أحياناً في أشهر الصيف في لندن، إثر هطلة مطر، كنت أشم رائحتها. في لحظات خاطفة قبيل مغيب الشمس، كنت أراها. في أخريات الليل، كانت الأصوات الأجنبية تصل إلى أذني كأنها أصوات أهلي

هنا. أنا، لا بد، من هذه الطيور التي لا تعيش إلا في بقعة واحدة من العالم. صحيح أنني درست الشعر، بيد أن هذا لا يعني شيئاً. كان من الممكن أن أدرس الهندسة أو الزراعة أو الطب. كلها وسائل لكسب العيش. الوجوه هناك، كنت أتخيلها، قمحية أو سوداء، فتبدو وجوهاً لقوم أعرفهم. هناك مثل هنا، ليس أحسن ولا أسوأ.

ولكنني من هنا، كما أن النخلة القائمة في فناء دارنا، نبتت في دارنا ولم تنبت في دار غيرها. وكونهم جاءوا إلى ديارنا، لا أدري لماذا، هل معنى ذلك أننا نسمم حاضرنا ومستقبلنا، أنهم سيخرجون من بلادنا إن عاجلاً أو آجلاً، كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة. سكك الحديد، والبواخر، والمستشفيات والمصانع، والمدارس، ستكون لنا، وسنتحدث لغتهم، دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجميل. سنكون كما نحن، قوم عاديون، وإذا كنا أكاذيب، فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا.

مثل هذه الأفكار أوصلتني إلى فراشي، وصاحبتني بعد ذلك إلى الخرطوم حيث تسلمت عملي في مصلحة المعارف. مات مصطفى سعيد منذ عامين ولكنني ما أفتأ أقابله من حين لآخر. لقد عشت خمسة وعشرين عاماً، وأنا لم أسمع به ولم أره. ثم، هكذا فجأة أجده في مكان لا يوجد فيه أمثاله. وإذا بمصطفى سعيد، رغم إرادتي، جزء من عالمي، فكرة في ذهني، طيف لا يريد أن يمضي في حال سبيله. وإذا إحساس بعيد بالخوف، بأنه

من الجائز ألا تكون البساطة هي كل شيء. مصطفى سعيد قال إن جدي يعرف السر. الشجرة تنمو ببساطة، وجدك عاش وسيموت ببساطة. هكذا. لكن هب أنه كان يسخر من بساطتي؟ في رحلة بالقطار بين الخرطوم والأبيض، كان معي في نفس القمرة موظف متقاعد. حين تحرك القطار من كوستي كان الحديث قد وصل بنا إلى أيام دراسته. وعلمت منه أن عدداً من رؤسائي في وزارة المعارف كانوا معاصريه في المدرسة، وبعضهم كان يزامله في نفس الفصل. ومضى الرجل يذكر أن فلاناً في وزارة الزراعة كان زميله، والمهندس فلاناً كان في الفصل الذي أمامه، وفلاناً، التاجر الذي اغتنى أيام الحرب، كان من أبلد خلق الله في فصلهم، والجراح الشهير فلاناً كان أحسن جناح أيمن في المدرسة كلها أيامهم. وفجأة رأيت وجه الرجل يضيء، وعينيه تلمعان، وقال في صوت متحمس منفعل: «غريبة. تصور أنني نسيت أنبغ تلميذ في فصلنا، ولم يخطر على بالي منذ ترك المدرسة. الآن فقط تذكرته. نعم، مصطفى سعيد».

مرة أخرى ذلك الإحساس، بأن الأشياء العادية أمام عينيك تصبح غير عادية. رأيت نافذة القمرة وبابها يلتقيان، وخيل لي أن الضوء المنعكس على نظارة الرجل، في لحظة لا تزيد عن طرفة العين، يتوهج توهجاً خاطفاً كأنه شمس في رابعة النهار. ولا بد أن الدنيا في تلك اللحظة بدت مختلفة بالنسبة للمأمور المتقاعد أيضاً، إذ أن تجربة كاملة كانت خارج وعيه أصبحت

فجأة في متناول اليد. حين رأيت وجهه أول مرة، قدرت أنه في منتصف الستين. وأنظر اليه الآن وهو يستطرد في سرد ذكرياته البعيدة، فأرى رجلاً لا يزيد يوماً واحداً عن الأربعين.

«نعم، مصطفى سعيد كان أنبغ تلميذ في أيامنا. كنا في فصل واحد. كان يجلس في الصف الذي أمام صفنا مباشرة. ناحية اليسار. يا للغرابة. كيف لم يخطر على بالي قبل الآن مع أنه كان معجزة في ذلك الوقت؟ كان أشهر طالب في كلية غردون. أشهر من أعضاء التيم لكرة القدم، ورؤساء الداخليات، والخطباء في الليالي الأدبية، والكتّاب في جرائد الحائط، والممثلين الذائعي الصيت في فرق الدراما. لم يكن له نشاط من هذا القبيل إطلاقاً. كان منعزلاً ومتعالياً، يقضي أوقات فراغه وحده، إما في القراءة أو في المشي مسافات طويلة. كنا جميعاً داخليين تلك الأيام، في كلية غردون حتى أبناء العاصمة المثلثة. كان نابغة في كل شيء، لم يوجد شيء يستعصي على ذهنه العجيب. كان المدرسون يكلموننا بلهجة ويكلمونه هو بلهجة أخرى. خصوصاً مدرسو اللغة الإنجليزية، كانوا كأنما يلقون الدرس له وحده دون بقية التلاميذ».

وصمت الرجل برهة، فأحسست برغبة شديدة أن أقول إنني أعرف مصطفى سعيد، وإن الظروف ألقت بي في طريقه، فقص علي، ذات ليلة مظلمة قائظة، قصة حياته، وإنه قضى آخر أيامه في قرية مغمورة الذكر عند منحنى النيل، وإنه مات غرقاً، وربما

انتحاراً. وجعلني أنا دون سائر الناس وصياً على ولديه. لكنني لم أقل شيئاً. إنما المأمور المتقاعد هو الذي استطرد:

قطع مصطفى سعيد مرحلة التعليم في السودان قفزاً. كان بالفعل كأنه يسابق الزمن. وبينما ظللنا نحن بعده في كلية غردون، أرسل هو في بعثة إلى القاهرة وبعدها إلى لندن. كان أول سوداني يرسل في بعثة إلى الخارج. كان ابن الإنكليز المدلل. وكنا جميعاً نحسده، ونتوقع أن يصير له شأن عظيم. نحن كنا ننطق الكلمات الإنكليزية كأنها كلمات عربية. لا نستطيع أن نسكن حرفين متتاليين. أما مصطفى سعيد فقد كان يموج فمه، ويمط شفتيه، وتخرج الكلمات من فمه كما تخرج من أفواه أهلها. كان ذلك يملؤنا غيظاً والحقد «الإنكليزي الأسود». وعلى أيامنا، كانت اللغة الإنكليزية هي مفتاح المستقبل. لا تقوم لأحد قائمة بدونها. كلية غردون كانت مدرسة ابتدائية. كانوا يعطونها من العلم ما يكفي فقط لملء الوظائف الحكومية الصغرى. أول ما تخرجت، اشتغلت محاسباً في مركز الفاشر. وبعد جهد جهيد قبلوا أن أجلس لامتحان الإدارة. وقضيت ثلاثين عاماً نائب مأمور. تصور. وقبل أن أحال على المعاش بعامين اثنين فقط رقيت مأموراً. كان مفتش المركز الإنكليزي إلهاً يتصرف في رقعة أكبر من الجزر البريطانية كلها. يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند. وكانوا يتصرفون كالآلهة. يسخِّروننا نحن الموظفين الصغار أولاد البلد لجلب الموائد، ويتذمر الناس منا

ويشكون إلى المفتش الإنكليزي. وكان المفتش الإنكليزي. طبعاً هو الذي يغفر ويرحم. هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا، نحن أبناء البلد، وحبهم هم المستعمرون الدخلاء. وتأكد من كلامي هذا يا بني ألم تستقل البلد الآن؟ ألم نصبح أحراراً في بلادنا؟ تأكد أنهم احتضنوا أرذال الناس. أرذال الناس هم الذين تبوأوا المراكز الضخمة أيام الإنكليز. كنا واثقين أن مصطفى سعيد سيصير له شأن يذكر. كان أبواه من العبابدة. القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان. إنهم الذين هربوا سلاطين باشا من أسر الخليفة عبد الله التعايشي، ثم بعد ذلك عملوا وراداً لجيش كتشنر حين استعاد فتح السودان. ويقال إن أمه كانت رقيقاً من الجنوب. من قبائل الزاندي أو الباريا، الله أعلم. الناس الذين ليس لهم أصل، هم الذين تبوأوا أعلى المراتب أيام الإنكليز».

وكان المأمور المتقاعد يغط في نوم مريح، حين مر القطار على خزان سنار، الخزان الذي بناه الإنكليز عام 1926، متجهاً غرباً إلى الأبيض، على خط حديدي وحيد، ممتد عبر الصحراء، كأنه جسر من الحبال بين جبلين شرسين، بينهما هوة سحيقة ليس لها قرار. مسكين مصطفى سعيد. كان مفروضاً أن يكون له شأن بمقاييس المفتشين والمأمير. ولكنه لم يجد حتى قبراً يريح جسده، في هذا القطر الممتد مليون ميل مربع. وتذكرت ما قاله إن القاضي قبل أن يصدر عليه الحكم في الأولد بيلي قال له: «إنك يا مستر مصطفى سعيد، رغم تفوقك العلمي، رجل غبي.

إن في تكوينك الروحي بقعة مظلمة، لذلك فإنك قد بددت أنبل طاقة يمنحها الله للناس: طاقة الحب». وتذكرت أيضاً أنني حين خرجت من بيت مصطفى سعيد تلك الليلة، كان القمر الماحق قد ارتفع مقدار قامة الرجل في الأفق الشرقي، وأنني قلت في نفسي إن القمر مقلم الأظافر. لا أدري لماذا خيل لي أن القمر مقلم الأظافر؟.

وفي الخرطوم أيضاً، عرض لي طيف مصطفى سعيد، بعد محادثتي مع المأمور المتقاعد بأقل من شهر، كأنه جن أطلق من سجنه، سيظل بعد ذلك يوسوس في آذان البشر، ليقول ماذا؟ لا أدري. كنا في بيت شاب سوداني يحاضر في الجامعة، كنا أنا وهو زملاء دراسة في إنكلترا. وكان بين الحاضرين رجل إنكليزي يعمل في وزارة المالية. وصل بنا الحديث إلى موضوع الزواج المختلط. وتحول الحديث من نقاش عمومي إلى كلام عن حالات محددة. ثم من هم المتزوجون من أوروبيات؟ ثم من إنكليزيات؟ من هو أول سوداني تزوج إنكليزية؟ فلان؟ لا. فلان؟ لا. وفجأة... مصطفى سعيد. قالها الشاب المحاضر في الجامعة، وعلى وجهه إحساس الفرح ذاته الذي لمحته على وجه المأمور المتقاعد. ومضى الشاب يقول، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم في أوائل فصل الشتاء: «مصطفى سعيد كان أول سوداني تزوج إنكليزية، بل إنه كان أول سوداني تزوج أوروبية إطلاقاً. أظن أنكم لم تسمعوا به، فقد نزح من زمن، تزوج في انكلترا وتجنس

بالجنسية الإنكليزية. غريب أن احداً هنا لا يذكره، مع أنه قام بدور خطير في مؤامرات الإنكليز في السودان في أواخر الثلاثينات. إنه من أخلص اعوانهم. وقد استخدمته وزارة الخارجية البريطانية في سفارات مريبة في الشرق الأوسط. وكان من سكرتيري المؤتمر الذي انعقد في لندن سنة 1936. إنه الآن مليونير، ويعيش كاللوردات في الريف الإنكليزي».

«وسمعت نفسي أقول دون وعي، بصوت مسموع: مصطفى سعيد ترك، بعد موته، ستة أفدنة، وثلاث بقرات وثوراً، وحمارين، واحدى عشرة عنزاً، وخمس نعجات، وثلاثين نخلة، وثلاثاً وعشرين شجرة بين سنط وطلح وحراز وخمساً وعشرين شجرة ليمون ومثلها برتقال، وتسعة أرادب قمح وتسعة ذرة، وبيتاً مكوّنا من خمس غرف، وديوان، وغرفة واحدة من الطوب الأحمر، مستطيلة الشكل، ذات نوافذ خضراء، سقفها ليس مسطحاً كبقية الغرف ولكنه مثلث كظهر الثور، وتسعماية وسبعة وثلاثين جنيهاً وثلاثة قروش وخمسة ملاليم نقداً».

في لحظة لا تزيد عن مقدار ما يشيل البرق ثم يختفي، رأيت في عيني الشاب الجالس قبالتي شعوراً واضحاً حياً ملموساً، بالذعر رأيته في اتساع حدق العينين، وارتعاش الجفن وارتخاء الفك الأسفل. اذا لم يكن خائفاً فلماذا سألني هذا السؤال: «هل أنت ابنه؟».

سألني هكذا دون أن يدري هو الآخر لماذا نطق بهذه الكلمات الثلاث، وهو يعلم تمام العلم من أنا. إنه لم يكن زميلي في الدراسة، لكننا كنا في إنجلترا في وقت واحد، وقد جمعتنا مناسبات عدة وشربنا البيرة أكثر من مرة معاً، في حانات نايتسبردج. هكذا في لحظة خارج حدود الزمان والمكان، تبدو له الأشياء هو الآخر، غير حقيقة. يبدو له كل شيء محتملاً. هو أيضاً قد يكون ابن مصطفى سعيد، أو أخاه أو ابن عمه. العالم في تلك اللحظة القصيرة، بمقدار ما يطوف جفن العين، احتمالات لا حصر لها، كأن آدم وحواء سقطا لتوهما من الجنة.

كل تلك الاحتمالات استقرت على حال واحد حين ضحكت وعاد العالم كما كان، أشخاصاً ذوي وجوه معروفة وأسماء معروفة ومهن معروفة، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم أوائل فصل الشتاء. ضحك هو الآخر وقال: «يا لي من مجنون! طبعاً أنت لست ابن مصطفى سعيد ولا قريبه، وأنت لم تسمع به من قبل في حياتك. انني نسيت انكم معشر الشعراء، لكم سرحات وشطحات».

وفكرت في شيء من المرارة، أنني في زعم الناس شاعر، سواء أردت أو لم أرد، لأنني قضيت ثلاثة أعوام انقب في حياة شاعر مغمور من شعراد الإنكليز، وعدت لأدرس الأدب الجاهلي في المدارس الثانوية قبل أن يرقوني مفتشاً للتعليم الابتدائي.

وهنا تدخل الرجل الإنكليزي وقال إنه لا يدري صحة ما قيل

عن الدور الذي لعبه مصطفى سعيد في مؤامرات السياسة الإنكليزية في السودان. الذي يعلله ان مصطفى سعيد لم يكن اقتصادياً يركن إليه: «انني قرأت بعض ما كتب عما اسماه اقتصاد الاستعمار». الصفة الغالبة على كتاباته أن احصائياته لم يكن يوثق بها. كان ينتمي إلى مدرسة الاقتصاديين الفابيانيين الذين يختفون وراء ستار التعميم هروباً من مواجهة الحقائق المدعمة بالأرقام. العدالة، المساواة، الاشتراكية... مجرد كلمات. رجل الاقتصاد ليس كاتباً كتشارلز دكنز، ولا سياسياً كروزفلت. إنه أداة، آلة، لا قيمة لها بدون الحقائق والأرقام والإحصائيات. أقصى ما يستطيع أن يفعله هو أن يحدد العلاقة بين حقيقة وأخرى، بين رقم وآخر. أما أن تجعل الأرقام تقول شيئاً دون آخر، فذلك شأن الحكام ورجال السياسة. الدنيا ليست في حاجة إلى مزيد من رجال السياسة، لا. مصطفى سعيد هذا لم يكن اقتصادياً يوثق به».

وسألته إن كان قد قابل مصطفى سعيد.

«لا. إنني لم أقابله. كان قد ترك أكسفورد قبلي بمدة لكنني سمعت نتفاً هنا وهناك. يظهر أنه كان زير نساء. خلق لنفسه أسطورة من نوع ما. الرجل الأسود الوسيم، المدلل في الأوساط البوهيمية. كان كما يبدو واجهة يعرضها أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين كانوا في العشرينات وأوائل الثلاثينات يتظاهرون بالتحرر. ويقال إنه كان صديقاً للورد فلان ولورد

علان. وكان أيضاً من الأثيرين عند اليسار الإنكليزي. ذلك من سوء حظه، لأنه يقال إنه كان ذكياً. لا يوجد على وجه الأرض أسوأ من الاقتصاديين اليساريين، حتى منصبه الأكاديمي ـ لا أدري تماماً ماذا كان ـ يخيل إلي أنه حصل عليه لأسباب من هذا النوع. كأنهم أرادوا أن يقولوا: أنظروا كم نحن متسامحون ومتحررون! هذا الرجل الأفريقي كأنه واحد منا! إنه تزوج ابنتنا ويعمل معنا على قدم المساواة. هذا النوع من الأوروبيين لا يقل شراً، لو تدرون، عن المجانين الذين يؤمنون بتفوق الرجل الابيض في جنوبي أفريقيا وفي الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة. نفس الطاقة العاطفية المتطرفة، تتجه إلى أقصى اليمين أو أقصى اليسار. لو أنه فقط تفرغ للعلم لوجد أصدقاء حقيقيين من جميع الأجناس، ولكنتم قد سمعتم به هنا. كان قطعاً سيعود وينفع بعلمه هذا البلد الذي تتحكم فيه الخرافات. ها أنتم الآن تؤمنون بخرافات من نوع جديد. خرافة التصنيع، خرافة التأميم الوحدة العربية خرافة الوحدة الأفريقية. إنكم كالأطفال تؤمنون أن في جوف الأرض كنزاً ستحصلون عليه بمعجزة، وستحلون جميع مشاكلكم، وتقيمون فردوساً. أوهام. أحلام يقظة. عن طريق الحقائق والأرقام والإحصائيات، يمكن أن تقبلوا واقعكم وتتعايشوا معه وتحاولوا التغيير في حدود طاقاتكم. وقد كان بوسع رجل مثل مصطفى سعيد ان يلعب دوراً لا بأس به في هذا السبيل، ولو انه لم يتحول إلى مهرج بين يدي حفنة من الإنكليز المعتوهين».

وبينما انبرى منصور يفند آراد رتشارد، أخلدت أنا إلى أفكاري ما جدوى النقاش؟ هذا الرجل ـ رتشارد ـ هو الآخر متعصب. كل أحد متعصب بطريقة أو باخرى. لعلنا نؤمن بالخرافات التي ذكرها، ولكنه يؤمن بخرافة جديدة، خرافة عصرية، هي خرافة الإحصائيات. ما دمنا سنؤمن باله، فليكن إلهاً قادراً على كل شيء. أما الإحصائيات! الرجل الأبيض، لمجرد أنه حكمنا في حقبة من تاريخنا، سيظل أمداً طويلاً يحس نحونا بإحساس الاحتقار الذي يحسه القوي تجاه الضعيف». مصطفى سعيد قال لهم: «إنني جئتكم غازياً. عبارة ميلودرامية ولا شك. لكن مجيئهم، هم أيضاً، لم يكن مأساة كما نصور نحن، ولا نعمة كما يصورون هم. كان عملاً ميلودرامياً سيتحول مع مرور الزمن إلى خرافة عظمى. وسمعت منصور يقول لرتشارد: «لقد نقلتم إلينا مرض اقتصادكم الرأسمالي. ماذا أعطيتمونا غير حفنة من الشركات الاستعمارية نزفت دماءنا وما تزال؟» وقال له رتشارد: «كل هذا يدل على أنكم لا تستطيعون الحياة بدوننا. كنتم تشكون من الاستعمار، ولما خرجنا خلقتم أسطورة الاستعمار المستتر. يبدو أن وجودنا، بشكل واضح أو مستتر، ضروري لكم كالماء والهواء». ولم يكونا غاضبين. كانا يقولون كلاماً مثل هذا ويضحكان على مرمى حجر من خط الاستواء، تفصل بينهما هوة تاريخية ليس لها قرار.

دخلت الماء عاريا تماماً كما ولدتني أمي. أحسست برجفة أول ما لامست الماء البارد، ثم تحولت الرجفة إلى يقظه. النهر ليس ممتلئاً كأيام الفيضان ولا صفير المجرى كأيام التحاريق لقد اطفأت الشموع واغلقت باب الغرفة واغلقت باب الحوش دون أن أفعل شيئاً. حريق آخر لا يقدم ولا يؤخر. تركته يتحدث وخرجت لم أدعه يكمل القصة. فكرت أن أذهب وأقف على قبرها. فكرت أن أرمي المفتاح حيث لا يجده أحد. ثم عدلت. أعمال لا معنى لها ومع ذلك لا بد من القيام بعمل ما. وقادتني قدماي إلى الشاطئ وقد لاحت تباشير الفجر في الشرق. سأنفس عن غيظي بالسباحة. كانت الأشياء على الشاطئين نصف واضحة، تبين وتختفي، بين النور والظلام. كان النهر يدوي بصوته القديم المألوف، متحركاً كأنه ساكن لا صوت غير دوي النهر وطقطقة مكنات الماء غير بعيد. وأخذت أسبح نحو الشاطئ الشمالي. وظللت أسبح واسبح حتى استقرت حركات جسمي مع قوى الماء إلى تناسق مريح. لم أعد أفكر وأنا أتحرك إلى الأمام على سطح الماء وقع ضربات ذراعي في الماء، وحركة ساقي، وصوت زفيزي بالنفس، ودوي النهر، وصوت المكنة تطقطق على الشاطئ لا أصوات غير ذلك. ومضيت أسبح وأسبح وقد استقر عزمي على بلوغ الشاطئ الشمالي. هذا هو الهدف. كان الشاطئ أمامي يعلو ويهبط، والأصوات تنقطع كلية ثم تضج. وقليلاً قليلاً لم أعد أسمع سوى دوي النهر. ثم أصبحت كأنني في بهو واسع تتجاوب

أصداؤه. والشاطئ يعلو ويهبط ودوي النهر يغور ويطفو. كنت أرى أمامي نصف دائرة. ثم اصبحت بين العمى والبصر. كنت أعي ولا أعي. هل أنا نائم أم يقظان؟ هل أنا حي أم ميت؟ ومع ذلك كنت ما أزال ممسكاً بخيط رفيع واهن: الإحساس بأن الهدف أمامي لا تحتي، وأنني يجب أن أتحرك إلى أمام لا إلى أسفل. لكن الخيط وهن حتى كاد ينقطع، ووصلت إلى نقطة أحسست فيها أن قوى النهر في القاع تشدني إليها. سرى الخدر في ساقي وفي ذراعي، اتسع البهو وتسارع تجارب الأصداء. الآن. وفجأة، وبقوة لا أدري من أين جاءتني، رفعت قامتي في الماء. سمعت دوي النهر وطقطقة مكنة الماء. تلفت يمنة ويسرة فإذاً أنا في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب. لن أستطيع المضي ولن أستطيع العودة. انقلبت على ظهري وظللت ساكناً أحرك ذراعي وساقي بصعوبة بالقدر الذي يبقيني طافياً على السطح. كنت أحس بقوى النهر الهدامة تشدني إلى أسفل وبالتيار يدفعني إلى الشاطىء الجنوبي في زاوية منحنية. لن استطيع ان احفظ توازني مدة طويلة. ان عاجلاً أو آجلا ستشدني قوى النهر إلى القاع. وفي حالة بين الحياة والموت رأيت أسراباً من القطى متجهة شمالاً. هل نحن في موسم الشتاء أو الصيف؟ هل هي رحلة أم هجرة؟ وأحسست انني أستسلم لقوى النهر الهدامة. أحسست بساقيّ تجران بقية جسمي إلى أسفل. في لحظة لا أدري هل طالت أم قصرت تحول دوي النهر إلى ضوضاء مجلجلة، وفي

اللحظة عينها لمحت ضوءاً حاداً كأنه لمع برق. ثم ساد السكون والظلام فترة لا أعلم طولها، بعدها لمحت السماء تبعد وتقرب والشاطىء يعلو ويهبط. وأحسست فجأة برغبة جارفة إلى سيجارة. لم تكن مجرد رغبة. كانت جوعاً. كانت ظمأ. وقد كانت تلك لحظة اليقظة من الكابوس، استقرت السماء واستقر الشاطىء وسمعت طقطقة مكنة الماء، وأحسست ببرودة الماء في جسمي. كان ذهني قد صفا حينئذ، وتحددت علاقتي بالنهر. إنني طاف فوق الماء ولكنني لست جزءاً منه. فكرت أنني إذا مت في تلك اللحظة فإنني أكون قد مت كما ولدت، دون إرادتي. طول حياتي لم أختر ولم أقرر. إنني أقرر الآن أنني أختار الحياة. سأحيا لأن ثمة أناس قليلين أحب أن أبقى معهم أطول وقت ممكن ولأن علي واجبات يجب أن أؤديها. لا يعنيني إن كان للحياة معنى أو لم يكن لها معنى. إذا كنت لا أستطيع أن أغفر فسأحاول أن أنسى. سأحيا بالقوة والمكر. وحركت قدمي وذراعي بصعوبة وعنف حتى صارت قامتي كلها فوق الماء. وبكل ما بقيت لي من طاقة صرخت، وكأنني ممثل هزلي يصيح في مسرح: «النجدة. النجدة».

انتهت

المحتويات


المرأة
والولاية العامة
بين الفقه الإسلامي والقوانين العربية


السيد علي الأمين
ولاية الدولة
ودولة الفقيه


السيد علي الأمين
الأحزاب الدينية


صورة أوروبا
في
الأدب العربي الحديث
من طه حسين إلى الطيب صالح


تشيع العوام
وتشيع الخواص
السيد أحمد القبانجي

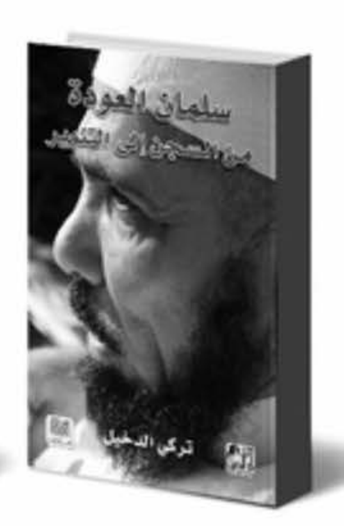

حكاية اسمها
غازي القصيبي
كمال عبد القادر


أمريكا
في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي
ما بعد 11 سبتمبر 2001


أمريكا
في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي
1995 - 1668


كنا في إسرائيل
رحلات مصرية
منذ 1956 وحتى 2008


تركي الدخيل
الدنيا... امرأة!


سلمان العودة
تركي الدخيل


تركي الدخيل
إنما نحن... جوقة العميان


الدكتور أحمد اللويمي
المجتمع
الأحسائي المعاصر
قراءة في طباعه وأفكاره


نازح من جازان
مفاجآت التمرد الحوثي
على الحدود السعودية
هادي فقيهي


تغطية العالم!
بدعة الإلزام بتغطية الوجه
أحمد السيد عطيف


خَارِجُ الطَّائِفَة
د. علي أحمد الديري


بيكاسو
وستاربكس
ياسر حارب
STARBUCKS
COFFEE


عبدالله المغلوث
كخه
يا
بابا


رشيد الخيّون
بَعد إذنِ الفَقيه
الحرام والحلال في أمر النساء
والطفولة والكتابة والطعام


تَلخيص البَيَانِ
في ذِكْرِ
فِرقِ أهْلِ الأديانِ


رشيد الخيّون
عمائم سُود
و
القصر السُعودي
انطباعات شخصية عن نجد والحجاز


رشيد الخيّون
رسالة
في العَلمانية والخلافة


رشيد الخيّون
ضد الطّائفيّة
العراق... جدل ما بعد نيسان 2003


رشيد الخيّون
لا إسلام بِلا مَذاهِب
و
طُرُوس أُخر من التراث


الحب والفراق
إنه محمد عبده يماني


رشيد الخيّون
مُعتَزِلَة
البَصْرَة وبَغْدَاد


رشيد الخيّون
جَدَلُ التَّنزيل
مع كتاب
خلق القرآن للجاحظ



الضحك في عز النكد
علي سالم
إذا كنت مسافراً خذني معك



التطرف وثقافة السلام
علي سالم



أعمدة الضحك السبعة
علي سالم



دلال ...



اعترافات زوج
علي سالم



علي سالم
بكالوريوس في حكم الشعوب



حمد الراشد
دفاع عن العلمانية ضد المسيري



إلى كاراكاس بلا عودة



في قلب بن لادن!
الرجل والعائلة


سعود المولى
اليمن السعيد
وصراعات الدين والقبلية

المناهج الحديثة
في
الدرس
القرآني

صباح الثلاثاء

مصطفى الأنصاري
النهاريّون
رواية

مصطفى الأنصاري

شبكات
التواصل الاجتماعي
وديناميكية التغيير
في العالم العربي
myspace

اقرأ
كيف تجعل القراءة
جزءا من حياتك
ساجد العبدلي

نحو انعتاقي
ريم عبدالرحمن
رواية

أيام مع
المارينز


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

في هذا الكتاب نماذج مهمة من الروايات العربية التي وقعت أحداثها في أوروبا وقدمت شخصيات أوروبية وهي تغطي الفترة الواقعة بين 1935 وحتى عام 1967.

هذه الروايات يمكن أن نسميها «روايات المغتربين» وهي مرّت بثلاث مراحل: الأولى يكون فيها بطل الرواية قد حمل كلّ عاداته المحلية معه إلى بيئته الجديدة في الغربة، أي ان انتقاله إلى أوروبا كان انتقالاً مكانياً. ويمثل هذه المرحلة خيرَ تمثيل توفيق الحكيم. في المرحلة الثانية يكون فيها البطل قد درس في أوروبا وحصل على شهادة، وعاد إلى بلده من دون أن يتمكن من الانسجام مع بيئته الأولى.

تمثّل هذه المرحلة رواية «قنديل أمّ هاشم» ليحيى حقي، و«موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح. المرحلة الثالثة هي ما يمرّ بها الروائيون المغتربون في الوقت الحاضر، وفيها يدرس البطل الروائي في الغرب، ولكن الغرب هنا أصبح أمريكا.


ISBN 978-9953-566-36-8

